1989

مكتبة نوبل

كاميلو خوسيه ثيلا

عائلة باسكوال دوارت



ترجمة : رفعت عطفة

علي مولا

عائلة باسكوال دوارت

مكتبة نوبل

Author : Camilo Jose' Cela
Title : LA FAMILIA DE PASCUAL DUARTE
Translator: Rifat Atfé
Al- Mada : P. C.
First Edition 2000

La presente edición ha sido traducida mediante una ayuda de la Dirección General del libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio de Educación y Cultura de España

اسم المـؤلف : كاميلو خوسه ثلا
عنوان الكتـاب : عائلة باسكوال دوارت
ترجمـة : رفعت عطفة
النـاشـر : المدى
الطبعـة الأولى : عام ٢٠٠٠

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع الإدارة العامة للكتب والأرشيف والمكتبات في وزارة التربية والثقافة الإسبانية .

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ – ٢٣٢٢٢٧٥ – ٢٣٢٢٢٧٦ – فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٨٩

مكتبة نوبل

كاميلو خوسيه ثيلا

عائلة باسكوال دوارتي

ترجمة

رفعت عطفة

الإهداء

أقدّم هذه الرواية إلى صديقي بيكتور رويث إزيارتِ.

أقدّم هذه الطبعة إلى أعدائي، الذين كثيراً ما ساعدوني في مسيرتي.

مقدمة

وُلِدَ كاميلو خوسيه ثِلا ترولُكْ في إيريا فلابيا على مقربة من باردُنْ التابعة لمقاطعة لا كورونيا عام ١٩١٦ . بدأ دراسةَ الطبّ قبل اندلاع الحرب الأهلية وحضر دروس الأدب في كلّية الفلسفة والآداب في جامعة مدريد . شرع بعد الحرب بدراسة الحقوق دون أن ينهيها أيضاً . كان موظفاً عادياً في إحدى النقابات ، حيث كتب فيها الرواية التي نقدّمها اليوم لقراء اللغة العربية : باسكوال دوارتِ . أصيب بعدها بمرض أقعده فترة أفادته في قراءة الكلاسيكيين . دفعه النجاح الذي حقّقته روايته الأولى : باسكوال دوارتِ ، التي تعتبر بحسب إجماع النقاد أفضل أعماله ، إلى التفرّغ للأدب الذي سرعان ما احتلّ فيه مكاناً رفيعاً من خلال تتالي أعماله التي كان من أبرزها صيوان الراحة (١٩٤٤) مغامرات لاثارو دِ تُورمِس وعثراته الجديدة (١٩٤٤) طاولة تملؤها الفوضى (١٩٤٥) ، رحلة إلى القرية (١٩٤٨) ، الخليّة (١٩٥١) السيّد كالدوِل يتحدث مع ابنه (١٩٥٣) الشقراء (١٩٥٥) ؛ مزلقة الجياع (١٩٦٢) ، سان كاميلو ، ومسائية جمعة الآلام (١٩٧٣) .

ينتمي منذ عام ١٩٥٧ إلى الأكاديمية الملكية للغة وحصل على عدد من الجوائز الأدبية من أهمها وآخرها جائزة نوبل للآداب .

تتميّز أعماله بتنوّع البنية الروائيّة ، حتى أن بعض النقّاد تساءل عمّا إذا كان باستطاعتنا أن نسميها رواية ، لكنّ ثِلا الذي يعتبر أنّ من غير الممكن تعريف الرواية يردّ على ذلك في مقدّمته لرواية السيّد كالدولِ يتحدّث مع ابنه بقوله : " الرواية هي كل ما يطبع على شكل كتاب ويسمح تحت العنوان وبين قوسين بكلمة رواية" .

روايته هذه التي هي الأولى اعتبرت الحدثَ الأهمّ في عالم الرواية الإسبانية التالية للحرب الأهلية ، وذلك نظراً لأنّها أسّست لما بعد الواقعية ، التي كانت منتشرة في إسبانيا ، على الرغم من اتكائها على كلاسيكية تعود إلى بدايات الرواية الإسبانية : لاثاريّو دِ تورمِس .

تعالج الرواية موضوعاً بسيطاً ببنيةٍ مركّبة . فالشخصية الأساسية ، باسكوال ، ريفي من استرمادورا ، محكوم بالإعدام يكتب مذكراته ، ليست مذكرات بالمعنى الدقيق للكلمة ، في السجن . تتكشّف الرواية منذ البداية وحتى النهاية عن قدريّة مريعة . فالبيئة البيتية التي عاش فيها البطل بيئة فظيعة : أب فظيع ، مهرب وسكير وأم مريعة ، لا تملك شيئاً من عاطفة الأمومة ، أخت طيّبة تهرب من البيت وتقع في شراك رجلٍ يحملها على ممارسة بيع المتعة وأخ مُتَخَلِّف معتوه يموت غرقاً في طشت زيت... أمّا البطل ذاته فهو وبحسب ما يقول عن نفسه رجل مصاب باللعنة ، يتزوّج مرتين وينتقل من جريمةٍ إلى أخرى لينتهي بقتل أمّه التي يعتبرها المسؤولة عن كلّ ما جرى له ولأخته من مصائب .

أمّا من حيث البنية فالملفت للنظر هو أنّ هناك أكثر من راوٍ : الناسخ وباسكوال دوارتِ بطل الرواية وسانتياغو لورونِيا وثِسارئو ، في الوقت الذي نجد فيه أنّها مروية على لسان الشخص الأول ، يروي المريعَ من حياته ، على

طريقة الرواية المسماة بالبيكاريسكا أو ما يمكن أن يوازيها في العربية من قصص العيّار والشطّار .

لفت انتباهي أنَ الرواية جاءت لتلخّص ثلاثة أساليب مهمّة في الأدب الإسباني ، الأول هو رواية العيار والشطار وبالتحديد رواية لاثاريّو دِ تورمِسْ ، والثاني هو أسلوب وجوّ باليِيه - إنكلان وخاصّة في مسرحياته : الكوميديات البربرية وكلمات قدسية من حيث الجوّ والشخصيات ، والثالث هو أسلوب ف . غارثيا لوركا وبالتحديد في الحوار ، قصراً وصورة فنية وإيحاءً ، وهذا ليس بالأمر المستبعد نظراً لأنّ باليِيه - إنكلان ولوركا كانا قريبين منه زمناً وإنتاجاً . كلاهما مات في عام ١٩٣٦ .

أعتقد أنّ المكتبة العربية ، الرواية في هذه الحالة ، بحاجة للتعرف على أعمال هذا الكاتب ، الذي ما زال يكتب حتى اليوم ويشارك في الكثير من النشاطات الثقافية في أسبانيا والخارج .

رفعت عطفه

ملاحظة الناسخ

يبدو لي أنّ الفرصة قد حانت كي أدفع بمذكرات باسكوال دوارتِ إلى المطبعة . ربّما لو دفعتها قبل ذلك لكان في ذلك بعض التهوّر ، لم أبغِ الاستعجال بتحضيرها ، لأنّ كلّ شيءٍ يحتاج الوقتَ اللازم له ، بما فيها تصحيح أخطاء المخطوط الإملائيّة ولأنّ السرعة ، كمن يقول سرعة عدو الحصان ، لا يمكن أن تقود إلى عملٍ جيّد . ولو أنّني دفعتها بعد ذلك لما وجدت لنفسي مبرِّراً ، فالأشياء يجب أن تظهر بعد إتمامها .

حين عثرتُ على الصفحات التي أنسخُها لكم بخطّ يدي عام ١٩٣٩ في صيدلية في ألمندرالِخو ـ وحده الله يعرفُ الأيدي المجهولةَ التي أودعتها هناك ـ رحتُ أتسلّى ، منذ ذلك الحين وحتى الآن ، بترجمتها وترتيبها ، لأن المخطوط كان أحياناً أقلّ من أن يكونَ مقروءاً ـ وهذا يعود من ناحية إلى أنّه سيّئ الخطّ ولأنّني من ناحية أخرى وجدت أوراقه غير مرقّمة وغير مرتّبة جيّداً .

أريد أن أوضّح للقارئ الفضولي منذ اللحظة الأولى أنّه لا فضل لي في العمل الذي أقدّمه إليه اليوم غير النسخ ؛ فأنا لم أنقّح أو أُضِف مثقالَ ذرّة ،

لأنّني أردت احترامَ الروايةِ حتى في أسلوبها . فضّلت في بعض المقاطع الفجّة ، أكثر من اللازم ، استخدامَ المقصّ وأقص من أجل المفيد ، الإجراء الذي سيحرم بالطبعِ القارئَ من معرفة بعض التفاصيل الصغيرة ـ التي لا يخسر شيئاً بجهلها ـ ، لكنّها تقدّم بالمقابل فضيلة تجنيب وقوع النظر على أسرارٍ ، تصل حدّ التقزّز ، والتي ـ أكرّر ـ بدا لي تقليمها مناسباً أكثر من صقلها .

سلوكُ الشخصية ، من وجهة نظري ، الذي ربّما كان السبب الوحيد الذي يجعلني أخرجها إلى النور ، نموذج ، لكنّه ليس نموذجاً للتقليد ، بل للهرب منه ، نموذج أيّ موقف عراكي في مواجهته زائد ، نموذج لا يمكن القول في مواجهته إلاّ : "هل رأيت ما يفعل ؟ إنّه يقوم بعكس ما يجب ."

لكن لندع باسكوال دوارتِ يتكلّم فهو مَنْ عنده أشياء مهمّة يحكيها لنا . .

رسالة تـُعلن إرسال الأصل

السيّد دونْ خواكين بارّرا لوبِثْ مِريدا .

سيدي الكريم :

اعـذرني لأنّني أرسل إليك هذه الروايةَ الطويلةَ ، مـرفقـةً بـهـذه الرسـالة الطويلة أيضاً بالنسبـة لما تهدف إليه . لكن وبما أنّك الوحيد الذي أحتفظ بعنوانه في ذاكرتي من بين أصدقاء خِسوس غونثالِثْ دِ لا رّيبا (غفر الله له كمـا لا بدّ أنه غفـر لي) فإنّني أريد أن أوجّهها إليك لتخلّصَني منهـا ، فأنا يعذّبني مجرّد التفكير بأنّني استطعتُ كتابتها ، ولأتفادى رميها في لحظة كـآبةٍ ، أرادَ الله أن ينعمَ عليّ بالكثيـر منهـا في هذه الأيام ، ولأحـرمَ بهـذه الطريقة بعضَهم من تعلّم ما لم أتعلم إلاّ بعد أن فات الأوان .

سـأوضّح قليـلاً . بمـا أنّه لا يخفى عليّ ، للأسفِ ، أنّ في ذكـراي من اللعنة أكثر من أيّ شيء آخر ، وأُريد أن أُريحَ ـ ما استطعتُ ـ ضميريَ بهذا الاعتراف العلني ، الذي ليس توبة قليلة ، وجدتني أنزع إلى رواية شيء مما أذكر من حياتي . لم تكن ذاكرتي قط نقطة قوّتي وأعرف أنّني ربّما نسيتُ أشياء كثيرة بل ومهمّة ، لكن ومع ذلك انكببتُ على رواية ذلك القسم الذي

لم أبغِ محوَهُ من رأسي ولم تقاوم يدي خطَّهُ على الورق ، لأنّ هناك قسماً شعرتُ ، حين حاولت روايته ، بغثيانٍ شديد في روحي ، ففضّلتُ السكوت عليه ونسيانه الآن . حين بدأت كتابة هذا النوع من المذكّرات انتبهت جيّداً إلى أنّه لا بدّ لحياتي - موتي ، ليت الله يُسرّع به - أن تنطوي على شيء أستطيع روايته ، هذا الموضوع الذي شغلني كثيراً ، وأستطيع أن أقسم لك بالقليل مما تبقى لي من حياة أنّني في أكثر من مناسبة ظننت نفسي أنهار حين لم يكن يسعفني ذكائي بالنقطة التي يجب أن أنهيها عندها . فكّرت أنّه من الأفضل أن أبدأ وأترك النهاية إلى أن يشاء اللهُ إيقاف يدي وهكذا فعلتُ ؛ واليوم حيث يبدو أنّني مللت من مئات الصفحات التي ملأتها بثرثراتي أتوقّفُ نهائياً عن متابعة الكتابة كي أترك لخيالك إعادة بنائها ، وهو ما لن يكون صعباً عليك ، لأنّني لا أظنّ أن أشياءً كثيرةً جديدة ، بالتأكيد ستكون قليلة ، ستحدث لي بين هذه الجدران الأربعة .

كانت تضايقني ، عند البدء بتحرير ما أرسله إليك ، فكرة أن كان يوجدُ من يعرف في ذلك التاريخ ما إذا كنتُ سأصل إلى نهاية روايتي أو أين عليَّ أن أقطعها إذا لم أحسن قياس الوقت الذي استهلكته ، وهذا اليقين بأنّ أعمالي ستُخطّ حتماً فوق أخاديد مقدّرة مسبقاً كان شيئاً يخرجني من عقلي . اليوم وأنا أقرب إلى الحياة الآخرة ، أجدُني أكثر تسليماً . أنعمَ الله عليَّ بغفرانه .

ألاحظ بعض الراحة بعد أن رويت كلّ ما جرى لي ، بل هناك لحظات يريدُ ضميري ذاته أن يخفّف من تأنيبه لي .

أثق بأنك ستعرفُ كيف تفهم ما لا أقوله بشكل أفضل ، لأنّني لن أعرف . إنّني حزينٌ الآن لأنّني أخطأتُ الطريق ، لكنّني ما عدتُ أطلبُ عفواً

في هذه الحياة . لماذا ؟ لأنّه ربّما كان من الأفضل أن يفعلوا بي ما قُدِّرَ لي ، وكان من المرجّح أنّني سأعود وأفعل ما فعلتُ إذا لم يفعلوا بي ذلك . لا أريد أن أطلبَ العفوَ لأنّ ما تعلّمته من الحياة من سوءٍ أكثر من اللازم وضعفي كبير في مقاومة الغريزة . فليكن ما كُتِبَ في كتاب السماوات .

تقبّلْ ، يا سيّد دون خواكين ، مع هذه الرزمة من الأوراق المكتوبة اعتذاري ، لأنّني توجّهت إليك ، وتقبّل الرجاء بالعفو الذي يبعث به إليك خادمك المتواضع وكأنّه يبعث به إلى السيّد المسيح نفسه .

باسكوال دوارتِ

نصّ الوصيّة المكتوبة بخطّ اليد والمقدّمة من دون خواكين بارُّرا لوبِثْ، الذي، أوصى نظراً لموته دون عقبٍ، بأملاكه إلى راهبات الخدمة الداخليّة.

وصية : آمر بأنّ تُسلمَ رزمة الأوراق الموجودة في درج طاولة كتابتي ، المحزّمة بالقنّب والمعنونة بالأحمر : "باسكوال دوارتِ" إلى النار دون أيّ تأخّر ودون أن تُقرَأ ، وذلك لمجافاتها ومعاداتها للأخلاق الحسنة . ومع ذلك وإذا ما قدّرت العناية الإلهية دون تدخل من أحدٍ ، بالوسائل المستنكرة ، أن تنجو الرزمة المذكورة خلال ثمانية عشر شهراً من المصير الذي أرغب فيه لها ، فإنّني آمرُ من يعثر عليها أن يحرّرها من التلف ويأخذها ملكيّة لنفسه ويتصرّف بها كما يشاء ما لم تتعارض مع مشيئتي ... ...

* حرر في مريدا (باداخوث) أثناء الاحتضار ، في الحادي عشر من أيار من عام ١٩٣٧ .

إلى ذكرى البطريك الشهير خِسوس غونثالِث دِلا ريبا،

كونت تورّمِخيّا، الذي حين أراد مؤلّفُ هذا المخطوط إرساله إليه ناداه:

" باسكواليّو" وابتسم.

ب. د.

١

لست سيئاً ، يا سيّدي ، مع أنّه لا تنقصني الأسباب لذلك . جميعنا ، نحن الفانين ، لنا الجلد ذاته حين نولد ومع ذلك يسرّ القدرَ أثناء تدرّجنا في العمر أن ينوّعنا كما لو كنّا من شمع ويقودنا في طرق مختلفة نحو النهاية ذاتها : الموت . من يؤمَر أن يسير في طريق الأزهار ، ومن يؤمر أن يَجرّ في طريقه الأشواكَ والصبّار . أولئك يتمتعون بنظرة رزينة ويبتسمون على عبق سعادتهم بوجه بريء ، وهؤلاء الآخرون يعانون قسوة الشمس في السهول ويقطبون جباههم كالوحوش الضارية ليحموا أنفسهم . هناك فرق كبير بين أن يزيّن المرء جلدَه باللون الوردي والعطر وبين أن يزينه بالوشم الذي لن يستطيع أحد محوه...

وُلِدت منذ سنوات كثيرة ـ على الأقل منذ خمس وخمسين سنة ـ في قرية على بعد فرسخين من ألمِندرالِخو ، قريةٍ قابعةٍ على طريقٍ مستوٍ وطويلٍ مثل يوم بلا خبزٍ ، مستوٍ وطويلٍ مثل الأيام ـ هو من الاستواء والطول بحيث لا تستطيع أنت ولحسن حظّك أن تتصوّره ـ بالنسبة للمحكوم بالموت...

كانت قرية حارّة ومشمسة ، غنيّة كفايةً بالزيتون والخنازير (عذراً لهذه

الكلمة) ، بيوتها المدهونة ، بيضاء إلى حدّ أنّ عينَيّ ما تزالان تؤلمانني كلّما تذكّرتها ، ساحتُها المرصوفة كلها بالحجارة تتوسّطها بحرتها الجميلة بأقنيتها الثلاث . كان قد مضى عدد من السنوات ، حين غادرت القرية ، على انقطاع الماء عن التدفق من أفواهها ، ومع ذلك كم كانت تبدو لنا أنيقة! ورشيقة بنهايتها التي تصوّر طفلاً عارياً بمغطسه المتموّج في حافّته مثل أصداف الزامور . كانت تقوم في الساحة دار البلدية الكبيرة والمربّعة مثل صندوق تبغ ، يتوسّطها برج وفي البرج ساعة بيضاء مثل خبز القربان ، متوقّفة دائماً على التاسعة وكأنّ القرية لا تحتاج لخدماتها بل لزينتها فقط .

كان في القرية كما هو طبيعي بيوت جيّدة وأخرى سيّئة ، وهي ، كما في كلّ شيء ، الأوفر ، وفيها بيت من طابقين ، هو بيت دونْ خِسوس ، الذي تسرّ النفسَ رؤيته بفناء استقباله المليء بالزليج والأصص . كان دونْ خيسوس دائماً نصيراً كبيراً للنباتات ، وكذلك أنا فقد أمرتُ الخادمة أن تولي الخبازى ، ورقيب الشمس والنخيل والنعناع الحنان ' الذي يولى للأولاد ، لأنّ العجوز كانت تمضي دائماً هائمة والمرشّ بيدها تسقي الأصص بدلال لا شكّ تشكرها عليه النباتات كما تدلُّ على ذلك نضارتها وخضرتها . كذلك كان بيت دونْ خِسوس في الساحة ، الشيء الغريب بالنسبة لرأسمال مالكٍ لا يكترث بإنفاقه ، ويختلف عن بقيّة البيوت بشيء واحد ، تتفوّق به جميعها عليه ، إضافة إلى كلّ الأشياء الجيّدة التي ذكرتها : بالواجهة ، التي تبدو بلون الحجر الطبيعي ، الذي يجعلها عادية وغير مبيّضة ، مثل واجهة أفقر بيت هناك ، لا بدّ أن عنده أسبابه . فوق الباب حجارة ترسٍ ، عالية القيمة ، بحسب ما يقولون ، تنتهي برأسَي مقاتلَين قديمَيْن ، بخوذتيهما وريشهما ، واحدٌ ينظر إلى الشرق وآخر إلى الغرب وكأنّهما يريدان أن يُمثلا أنّهما يراقبان من يمكن أن يأتي من هذا الجانب أو ذاك . خلف الساحة من جهة

بيت دون خِسوس قامت الكنيسة ببرجها الحجري وناقوسها الذي يطنّ بطريقة لا أستطيع قولها ، لكن يخطر لي كما لو أنّني أمتخطُ في تلك الزوايا... كان برج النواقيس بعلوّ برج الساعة وفي الصيف حين تأتي طيور اللقلق تعرف في أيّ برج أقامت في الصيف الماضي ، اللقلق الأعرج ، الذي قاوم شتائين ، كان من لقالق برج الكنيسة ، حيث اضطرَّ أن يسقط وهو غضّ الريش ، خوفاً من الباشق .

كان بيتي خارجَ القرية ، على بعدِ مئتي خطوة واسعة من آخر البيوت ، ضيقاً ومن طابق واحد كما ينسجم مع حالتي ، لكنّني أحببته ، بل وهناك فترات شعرتُ فيها بالاعتزاز به . الحقيقة أن الشيء الوحيد المقبول فيه كان المطبخ ، وهو أوّل ما يقع عليه المرء حين يدخل فهو دائماً نظيف ومبيّض بإتقان ، صحيح أن الأرض ترابية ، لكنّها مرصوصة جيّداً بحصاها التي تشكل رسوماً لا تقل أهمية عن مطابخ كثيرة وضع فيها أصحابها حجارة كلسية بيضاء ضاربة للصفرة كي يشعروا بأنفسهم أكثر حداثة . كان الموقد واسعاً وفسيحاً وحول المدخنة رفّ عليه آنية خزفية للزينة وأباريق عليها كلمات للذكرى مكتوبة بالأزرق وصحون رسوم بعضها زرقاء أو برتقالية ، ورُسِمَت على بعضها وجوه وعلى أخرى أزهار أو أسماء أو سمكة . كان عندنا على الجدران عددٌ من الأشياء : تقويم جميل جداً ، يمثل فتاة تروّح بمروحة فوق زورق وفي الأسفل يُقرأ بحروف تبدو مكتوبة بمسحوق الفضّة "مودِستو رودريغِثْ ، مأكولات ناعمة" . مِريدا باداخوث (بطليوس) ، صورة صانع حلوى ببدلة احتفالية ملوّنة وثلاث أو أربع صور ـ بعضها صغير وبعضها عاديّ ـ ، لا أدري لِمَن تكون ، فقد رأيتها دائماً في المكان ذاته ولم يخطر لي السؤال عنها قط . كذلك كان عندنا ساعة منبّهة معلّقة على الجدار ، عملتْ دائماً لا لشيء ، لكن كما يأمرُ الله ، ومنبر بهدبٍ ملوّنة غرزت فيه دبابيس

جميلة برؤوسها البلورية الملونة . كان أثاثُ المطبخ قليلاً بقدر ما هو بسيط : ثلاث كراس ـ واحد منها ناعم جداً ظهره وسيقانه من الخشب المحني ، وقاعدته من الحصير ـ وطاولة من خشب الصنوبر بدرجها المعهود ، منخفضة بالمقارنة مع الكراسي ، لكنّها تقوم بوظيفتها . كنا ننعم في المطبخ : فهو في الصيف مريحٌ ، رطبٌ حين يُجلَس مساءً على حجر الموقد وتُفتح الأبواب على مصاريعها لأنّنا لا نشعل الموقد ؛ ودافئٌ في الشتاء بجمره الذي يحتفظ بوهجه طوال الليل ، إذا ما اعتني به قليلاً . كنا نستطرِفُ النظرَ إلى ظلالنا على الجدار حين يكون هناك بعض اللهب! تروح وتغدو بطيئةً أحياناً وأخرى قافزة وكأنّها تلعب . أتذكّر أنّها كانت تخيفني في طفولتي ؛ بل ما زالت تسري فيّ قشعريرة ، حتى الآن وأنا كبير ، حين أتذكّرُ ذلك الخوف .

لا تستحقّ بقية البيت حتى أن توصف ، فهي من الابتذال بمكان . كان عندنا غرفتان أخريان ، هذا إذا تَوَجَّب علينا أن نسميهما كذلك لأنّهما مسكونتان لا لأيّ شيءٍ آخر ، والإسطبل ، الذي أتساءل الآن ، في مناسبات كثيرة ، لماذا نسميه كذلك وهو على ما هو عليه من الفراغ والإهمال . في واحدة من تلك الغرف كنتُ أنام أنا وزوجتي ، وفي الأخرى ينام والداي إلى أنْ شاء اللهُ ، أو من يدري أيّ شيطان ، حملهما . بقيتْ بعد ذلك فارغة دائماً تقريباً ، في البداية لأنّه لم يكن هناك من يشغلها ؛ ثم وحين صار هناك مَنْ يمكن أن يشغلها لأنّه فضّلَ المطبخَ دائماً ، إذ لم تكن تنفخ فيه الريح ، بالإضافة إلى أنّه أكثر إضاءة . فأختي تنام فيه دائماً ، حين تأتي ؛ وطفلاي ، حين كان لي طفلان ، ينشدّان إليه حال انفصالهما عن حضن أمّهما . الحقيقة لم تكن الغرفتان جيّدتَي النظافة ولا حسنتَي البناء ، لكن ليس إلى حدّ التذمر منهما ، إذ يمكن العيش فيهما ، وهذا هو المهم ، بمنأى عن غيوم عيد

الميلاد وفي مأمن - وهو ما يستحقه المرء - من اختناقات العذراء في آب . كان الإسطبل أسوأها ، فهو كئيب ومظلم وجدرانه تشرّبت رائحة بهيمة نافقة ، تصدرُ عن الهوّة التي تخلّفها الجيف التي على الغربان أكلها...

شيء غريب ، لكن في فتوتي كانت تنتابني ، إذا حرموني من تلك الرائحة ، سكرةٌ تشبه سكرة الموت ؛ أتذكر تلك الرحلة إلى العاصمة لأجل القرعة العسكرية ؛ بقيت قلقاً النهارَ بكامله أتشمّم مثل كلبِ صيد . وحين ذهبت للنوم في النزل شممت بنطلوني الكتاني . كان دمي يسخن كلّ جسدي... أبعدتُ الوسادةَ جانباً وأسندت رأسي على بنطلوني المطوي كي أنام . نمتُ في تلك الليلة مثل حجر .

كان عندنا في الإسطبل حمار صغير ، معقور وهزيل يساعدنا في العمل ، وخنزيران (عذراً) أو ثلاثة حين تكون الأمور حسنة ، وللحقيقة أقول لم يكن هذا يحدثُ دائماً . في القسم الخلفي من البيت حوشٌ أو نتوء ، ليس كبيراً ، لكنّه يفيدنا ، فيه بئر اضطررنا مع الزمن لإغلاقه نظراً للمياه الآسنة التي صارت تنبع منه .

كان يمرّ خلفَ الحوش جدولٌ نصف جافّ أحياناً ، ودائماً غير طافحٍ ، قذر ونتن الرائحة مثل قبيلة من الغجر ، يمكن أن يؤخذ منه أنقليس جميل ، كما كنتُ أفعل للتسلية في بعض المساءات قتلاً للوقت ؛ وزوجتي الظريفة ، على الرغم من كلّ شيء ، تقولُ لي : إنّ الأنقليس مكتنز لأنّه يأكل ما أكله دونْ خِسوس . لكن في اليوم التالي ، حين كان يخطر لي الصيد أقضي الساعات دون أن أُحسّ بها وحين يرن جرس الوقت لجمع عدّتي غالباً ما يكون قد حلّ الليل ، وبدأت ألمِندرالِخو تشعل أضواءها الكهربائية هناك في البعيد ، مثل سلحفاة منخفضة وسمينة ، مثل أفعى متلوّية تخاف الانفصال

عن الأرض . وسكانُها يجهلون بالتأكيد أنني أصيد وأنظر في تلك اللحظة كيف تشتعل أنوارُ بيوتهم ، بل وأتخيّل أيضاً كيف أن الكثيرين منهم يقولون أشياء أتصورها ، أو يتكلّمون عن أشياء تخطر لي . سكّان المدن يعيشون وظهورهم إلى الحقيقة ، لا يخطر لهم في الغالب أنّه على بعد فرسخين منهم ، ووسطَ السهب يوجدُ فلاّح يشغل نفسه بالتفكير بهم بينما يحني سنارته ، يأخذ عن الأرض سلّة صفصاف فيها ستة أو سبعة أنقليسات .

ومع ذلك بدا لي دائماً أنّ صيد السمك تسليةٌ غير مناسبة تماماً للرجال ، لذلك خصصتُ في أكثر الأحيان أوقات فراغي للصيد البرّي . اشتهرتُ في القرية بأنّني لا أمارسه بشكل سيئ تماماً ، وإذا ما تركتُ التواضعَ جانباً عليّ أن أقول بصراحة إنّ من يقول هذا عني لم يكن يجانب الحق . كان عندي كلبة لصيد الحجل ـ الشرارة ـ نصف سافلة ونصف شجاعة ، لكنّها تتفاهم معي جيّداً . أذهب معها في كثيرٍ من الصباحات إلى البركة ، على بعد فرسخٍ ونصف من القرية باتجاه خطّ البرتغال ، ولا نعود خاليَي الوفاض إلى البيت مطلقاً . عند العودة كانت تتقدّمني وتنتظرني دائماً بجانب المفرق ، كان هناك حجر دائريّ أفطس مثل كرسي منخفض ، أحتفظ عنه ، كما عن أيّ شخص ، بذكرى لطيفة ؛ أو بالأحرى أفضل من ذكرى أيّ شخص... كان عريضاً وغائراً قليلاً ، أجلس عليه فتنزلق خلفيّتي (عذراً) قليلاً وأرتاح إلى حدّ أنّني أحزنُ لأن عليّ أنْ أغادره . كنت أقضي برهة طويلة جالساً على حجر المفرق ، أصفر والبندقيّة بين ساقيّ ، أنظر إلى ما يجب أن أراه ، أدخّن لفافاتي ، بينما الكلبة تجلس أمامي فوق ساقيها الخلفيتين تنظر إليّ برأسها المائل جانباً وعينيها الكستنائتين واليقظتين تماماً ، أكلّمُها فترفعُ أذنيها قليلاً وكأنّها تريد أن تَفْهَمَني بشكلٍ أفضل ، أسكتُ فتستغلَ الفرصةَ لتجري قليلاً خلف الجنادب أو ، ببساطة ، لتبدّل من وضعيتها . كنتُ

ألتـفتُ حـين أغـادرُ إلى الحـجر دائمـاً ، كـأنّني أودّعـه . حـدث ذات يومٍ أن شعرتُ بها حزينة جداً لمغادرتي فما كان مني إلاّ أن عدتُ القهقرى وجلستُ من جديد... فعادتْ لتجلسَ أمامي تنظرَ إليَّ ، الآن انتبهت إلى أنّه كان لها نظرة راهِبٍ مُعـرِّفٍ ، سـابرة وباردة كنظرة الوشق كـمـا يـقـولون... فـسَـرَتْ قـشـعـريرةٌ في كامل جسدي ، مثل تيّار يجهد بالخروج مني عبر ذراعيَّ . كانت لفافتي قد انطفأت والبندقيّة ذات السبطانة الواحدة استسلمت ببطء للدغدغة بين ساقيَّ والكلبة ما زالت تمعن النظر فيَّ ، كأنّها لم ترني من قبل قط ، كأنّها ستخطّئني بشيء ما بين لحظة وأخرى فتسخّن نظرتُها الدمَ في عـروقي إلى حدّ أنّني كنت أرى اللحظة التي سأستسلم فيـها ، كـان الوقت حاراً ، والحرّ مريعاً وعيناي هيمنت عليهما نظرة الحيوان مثل مسمار...

أخذت البندقيّة وأطلقتُ النار ، عدّت ولقّمتها ، عدت وأطلقت النار . شيئاً فشيئاً راح دمُ الكلبة ينتشر على الأرضِ قاتماً ولزجاً .

٢

الذكريات التي أحتفظ بها عن طفولتي ليست جيّدة تماماً . كان والدي برتغالياً ويُدعى إستِبان دوارتِ دينيتْ ، في الأربعين من عمره ، طويلاً وبديناً مثل جبل ، بينما أنا طفل . كان لونه مُحمّصاً وله شارب أسود متهدّل إلى الأسفل . بينما كان في شبابه بحسب ما يقولون ينشدّ إلى الأعلى ، لكنّه ومنذ أن دخل السجن تخرّبت طلعته وارتخى شاربه ، وتهدّل إلى الأسفل بحيث كان عليه أن يحمله إلى القبر . كنتُ أكنّ له كثيراً من الاحترام وغير قليل من الخوف ، أتحاشاه ما استطعتُ ذلك وأتفادى لقاءه ، كان خشناً وفظّاً لا يسمح لأحدٍ بأن يعاكسة في شيءٍ ، النزوة التي احترمتُها لشدة حذري منه . فحين يهتاج ، وهو ما كان يحدثُ أكثر من اللازم ، يصفعنا ،لأيّ سببٍ كان ، أنا وأمّي صفعاً مبرّحاً ، تحاول أمّي أن تردّه إليه لردعه ، أمّا أنا فلا يبقى أمامي نظراً لصغر سنّي إلا الاستسلام . اللحمُ يضٌّ في مثل هذه السنّ الصغيرة!

لم أجرؤ قط على سؤاله أو سؤالها منذ متى سجنوه ، لأنّني فكّرت أن من الأكثر حكمةً ألاّ أحشر نفسي في الرقص ، فهما كانا يرقصان من تلقاء نفسيهما وأكثر من اللازم ، طبعاً لم أكن بحاجة للسؤال عن شيء ، دائما

هناك من يتطوّع لذلك ، خاصّة في القرى قليلة السكان ، فهناك من لم يملك الوقت ليأتي ويحكي لي كلّ شيء . احتفظوا به لأنّه مهرب ، يبدو أنّها كانت مهنته لسنواتٍ طويلة ، لكن وبما أنّ الجرّة التي تذهب كثيراً إلى النبع تنتهي إلى الكسر ، ولا يوجد مهنة لا تفلس ، فلم يكن هناك حاجة للسرعة أو العمل ، إذ جاء يوم ، ربّما حين لم يكن يفكّر بالأمر ـ فالثقة هي التي تُضَيِّعُ الشجعان ـ لحق به رجال مكافحة التهريب ، اكتشفوا البضاعةَ المهرّبة وأرسلوه إلى السجن . يجب أن يكون قد مرّ على كلّ هذا زمن طويل ، فأنا لا أتذكّر شيئاً ، ربّما لم أكن قد وُلِدتُ بعد .

كانت أمّي على العكس من والدي ، غير بدينة ، لكنها حسنة القوام ؛ طويلة وضامرة لا تبدو في صحّة جيّدة ، على العكس كانت بشرتها ضاربة إلى الصفرة وخداها غائرين وكلّ مظهرها يدلّ على أنّها مصابة بالسلّ أو أنّها غير بعيدة عن ذلك ، كما كانت منقبضة وعنيفة ومزاجها مفتوح على جميع الشياطين ثمّ الكلام الذي يخرج من فمها ، غفر الله لها لأنّها كانت تجدّف بأدقع الأشياء في أيّة لحظة ولأوهن الأسباب ، ترتدي الحداد دائماً وودّها للماء قليل ، قليل إلى حدّ أنّني إذا أردت أن أقول الحقيقة ، قلتُ إنّني لم أرها تغتسل إلا في مناسبة واحدةٍ ، ناداها فيها والدي سكّيرة ، وأرادت أن تبرهن له أنّها لا تخاف الماء . النبيذ لم تكن تكرهه كثيراً وكلّما حصلت على بعض الفلوس أو فتّشت في صدارة زوجها أرسلتني إلى الحانة لشراء زجاجة تخبّئها تحت السرير كيلا يعثر عليها والدي . ولها شارب شائب على طرفي شفتيها ، وشعر كثّ تجمعه في قرص غير كبير فوق رأسها ؛ تظهر حول فمها ندبٌ أو علامات صغيرة ورديّة كآثار الخردق ، أعتقد أنّها نتيجة بثور خبيثة أصابتها في شبابها ؛ تستعيدُ في الصيف الحياة أحياناً ، يصعد إليها اللون وتنتهي

لتشكّل بثوراً من الصديد يتكفّل الخريف بقتلها والشتاء بمحوها .

كانت العلاقة بين والديَّ سيِّئةً ، فإضافة إلى قلّة تربيتهما لم يكن عندهما من الفضائل إلا ما ندر ولا قناعة بما يأمر الله ـ النقائص التي من المؤسف أنّه كان عليَّ أن أرثها ـ هذا ما جعلهما لا يفكّران إلا قليلاً بالمبادئ ولجم الغرائز ، وهو ما جَعلُ أيّ دافع ، مهما كان صغيراً ، كافياً لإطلاق العنان للعاصفة التي تمتدُّ بعد ذلك أياماً وأياماً دون أن تظهر لها نهاية . لم أكن بشكل عامٍّ أتبنى موقف أيّ منهما ، لأنّني إذا أردتُ قول الحقيقة كان سيّان عندي أن يكون الرابح هو أو هي . كنتُ أفرح أحياناً لأنّ أبي هو الذي يتلقى الصفعات وأخرى لأنّها أمّي ، لكنّني لم أعمل من هذا قضية قط .

لم تكن أمّي تعرف القراءة ولا الكتابة ، بعكس أبي ، الذي كان جدّ فخورٍ بذلك إلى حدّ أنّه واجهها به كلّ اثنين وكلّ ثلاثاء وباستمرار وإن لم يكن هناك مبرّر ، عادة ما كان يناديها بالجاهلة ، الشتيمة الخطيرة بالنسبة لأمي ، التي تتحوّل إلى بارود . كان والدي يأتي أحياناً حاملاً ورقةً في يده ، وكم ودَدْنا ألا يحدث ذلك ، يُجلسنا نحن الاثنين في المطبخ ويقرأ علينا الأخبار ، تأتي بعدها التعليقات فأبدأ أرتجف لأنّ تلك التعليقات شَكَّلتْ دائماً البداية لمشاجرة ما . كانت أميّ تقول لتغيظه إنّ الورقة لا تحتوي على شيء مما يقرأ وكلّ ما يقرؤه من بنات أفكاره ، فيخرجه سماعه هذا منها من عقله ، يصرخ كالمجنون ، يناديها جاهلة وساحرة وتنتهي دائماً للقول بأعلى صوتها إنّه لو عرف قول تلك الأشياء ما خطر له أن يتزوّج منها . وتبدأ الكارثة . فتناديه بالبائس والشعرانيّ وتعيّره بالجائع والبرتغاليّ فيسحب زناره ويضربها كما لو أنّهُ ينتظر سماع تلك الكلمة منها ، يلاحقها دائراً حول المطبخ حتى تكلّ ، كان يصيبني في البداية هذه الضربة من الزنار أو

تلك لكنّني حين خبرتُ الأمـر تعلّمت أن الطريقـة الوحيـدة لتجنّـب البلل هو عدم التعرّض للمطر ، وحين أرى أنّ الأمور بـدأت تأخذ وجهها السيئ كنت أتركهما وحيدين وأرحل...

الحقيقة أنّه لم يكن في حياة أسرتي الكثير من المتعة ، لكن وبما أنّ الخيار لم يكن لنا وكنّا محكومين منذ البداية ـ بل وقبل ولادتنا ـ بأنّ يكون بعضُنا في هذا الجانب وبعضنا الآخر في ذاك ، فقد حـاولتُ أن أكتفي بمـا أصابني ، لأنّها الوسيلة الوحيدة لعدم الوقوع في اليأس . في طفولتي ، وهي المرحلة التي تكون فيها إرادة الإنسان أكثر مطاوعة ، أرسلوني لفترة قصيرة إلى المـدرسة ؛ كان والدي يقول إنّ النضال من أجل الحياة قاسٍ جداً وعلى الإنسان أن يستعدّ لمواجهتها بالسلاح الوحيد الذي يمكّننا من السيطرة عليها ، سلاح الذكاء . يقول لي كلّ هذا دفعة واحدة ، كما لو أنّه تعلّمه ، فيبدو لي كما لو أنّ صوته أكثر رزانة ، بل يُدرِك نبرةً لا يطولها الشكّ... بعدها ينفجر بالضحك المهووس وينتهي إلى القول بما يشبه الحنان :

ـ لا تبالِ ، أيّها الفتى! فأنا أدخل الشيخوخة .

يبقى بعدها متفكّراً ويكرّر بصوت منخفض مرّة ثمّ أخرى :

ـ أدخلُ الشيخوخة!... أدخلُ الشيخوخة!...

تعلُّمي في المدرسة لم يدم إلاّ قليلاً . والدي الذي كان ، كما قلتُ ، ذا مزاجٍ عنيفٍ وتسلّطياً في بعض الأمور ، كان ضعيفاً وجباناً في أخرى ، عامة ما لاحظتُ أنّه لا يُطبّق مزاجه إلاّ في المسائل الصغيرة التافهة ، لأنّه نادراً ما يتوقّف عند الأمور المهمّة لا أدري أخوفاً أم لسبب آخر . لم تكن أمّي تريدني أن أذهب إلى المدرسة . وكانت في كلّ فرصة تتاح لها ، بل ودون أن يكون هناك فرصة تقول لي إنّ بقائي في الحياة فقيراً لا يستحق أن أتعلّم

شيئاً . إصابةٌ في أرضٍ صالحة ، فأنا أيضاً لم يغرني حضور الدروس وهكذا استطعنا بالتعاون بين الاثنين وبمساعدة الزمن إقناع والدي بقبول تركي الدراسة . كنتُ قد أصبحتُ أعرف القراءة والكتابة ، الجمعَ والطرح ، وفي الحقيقة أصبح عندي ما يكفي لتدبّر أمري . حين تركتُ المدرسة كنتُ في الثانية عشرة من عمري ، لكن على رسلكَ ، فكلّ شيءٍ يتطلّب نظامه والاستيقاظ المبكّر لا يعجّل ببزوغ الفجر .

كنتُ صغير السن حين جاءت أختي روساريو . أحتفظ من تلك الفترة بذكرى ضبابية وباهتة ، ولا أدري إلى أيّ حدٍّ سأروي بأمانة ما حدث ، ومع ذلك سأحاول ذلك وأنا أفكّر بأنّه إذا كان من الممكن لرواية أن تقع في عدم الدقّة فإنّها تبقى أقرب إلى الواقع من التصوّرات التي تستطيع أن تتصوّرها دون قياس . أتذكّر أن المساء الذي ولدت فيه روساريو كان حاراً ، يجب أن يكون في تموز أو آب ؛ والريف هادئاً وجافاً والزيزان كأنّها تريد أن تَبْرِدَ عظامَ الأرض بمِبردها ، والناس والبهائم قد انزووا ، بينما الشمسُ هناك في الأعالي سيّدة الجميع ، تنير كلّ شيءٍ وتحرق كلّ شيء . كانت مخاضات أمّي دائماً صعبة ومؤلمة جداً ، وهي نصف عقيم وجافّة قليلاً والألم عندها أكبر من قواها . وبما أنّ المسكينة لم تكن نموذجاً للفضائل ولا للكرامة ولا تعرف كيف تعاني وتصمت ، مثلي ، فإنّها تحلّ كلّ شيءٍ بالصراخ . كان قد مضى عليها عدّة ساعات وهي تصرخ حين جاءت روسالريو ، لأنّها ـ لِطَامّة الشقاء ـ بطيئة المخاض . وقد قال المثل : المرأة ذات المخاض البطيء ولها شارب... (لن أكتب القسم الثاني نظراً لعلوّ مقام من توجّه إليه هذه الأسطر) . كانت تولّد أمي امرأة من القرية ، هي السيّدة إنغراثيا ، ساكنة التلّ ، المتخصّصة بالجنائز والتوليد ، غامضة ونصف ساحرة ، حملت معها بعض الخلائط التي تضعها على بطن أمّي لتخفّف من آلامها ، لكن وبما أنّ هذه

تستـمرّ بالصـراخ ،بمـرهم ودونه ، حتى ينقطع نفسـهـا ، لم يخطر للسـيـدة إنغراثيا أن تعيبها بغير أنّها عديمة الإيمان ومسيحية سيئة ، وبما أن صياح أمّي في تلك اللحظات كان يتفاقم مثل الريح الشديدة تساءلت ما إذا لم تكن فعلاً مسكونة بالشياطين . لم يدم شكّي طويلاً ، لأنّه سرعان ما انجلى الأمر وتبين أن سبب تلك الأصوات غير المعهودة هي أختي الجديدة .

كان قـد مضى على والدي برهة طويلة وهو يسـيـر بخطوات كبيـرة في المطبخ . وحين وُلِدت روساريو اقترب من سرير أمّي وراح يقول لها دون أيّ اعتبار للظرف : أفّاقة وقحبة ويضربها بزناره إلى حدّ أنّني ما زلتُ أستغرب أنّه لم يسـحقـهـا حيّـة . ذهب بعدها ولم يعـد إلا بعد يومين طويلين . عـاد سكران مثل زقّ ، اقترب من سـرير أمّي وقبّلها ، تركته أمّي يقبّلها... بعدها ذهب لينام في الإسطبل .

٣

عملوا لروساريو سريراً من صندوق ليس شديد العمق ، نثروا فيه وسادة كاملة من الوبر وأبقوها هناك على حافّة سرير أمّي ، ملفوفة بأسيرة من القطن وغطوها بشكلٍ جعلني أفكّر مرّاتٍ كثيرة بأنهم سينتهون إلى خنقها . لا أدري لماذا خطر لي حتى تلك الفترة أن أتصوّر أنّ الأطفال الصغار بيضٌ كالحليب ، ما أتذكّره هو الانطباع السيئ الذي أحدثته عندي أُخَيّتي حين رأيتها دبقةً ومحمرّة مثل سرطانٍ مسلوق وعلى رأسها زغب غريب كالزرزور أو الأفراخ في العشّ ، راحت تفقده مع مرور الشهور ويداها مشدودتان وصافيتان تثير رؤيتهما التقزّز . وحين فكّوا الأربطة بعد ثلاثة أو أربعة أيّام من ولادتها ، لأنّهم رأوا ضرورة تنظيفها قليلاً ، استطعتُ أن أتمعّن فيها قليلاً وأعرف كيف هي بل وأستطيع القولَ إنّها لم تسبِّب لي التقزّز الذي سبّبته لي في المرّة الأولى ، فلونها تنقّى وعيناها ـ اللتان لم تفتحهما بعد ـ بدتا وكأنهما تريدان تحريك الأهداب ، ويداها لانتا . نظّفتها السيدة إنغراثيا ، التي قد لا تستطيع أن تكون شيئاً آخر غير أنّها عون للبؤساء فعلاً ، جيّداً بماء الحصالُبان ، لفّتها من جديد بسيور خرجت أقل تلطخاً ورمت جانباً بتلك التي لم تتمكن من معالجتها

جيداً لغسلها . تركت الطفلة من الرضى بحيث أنّها بقيت ساعات متواصلة نائمة ، وما كان لأحد أن يفكّر ـ نظراً للصمت في بيتنا ـ أنّ عندنا ولادة . كان والدي يجلس على الأرض بجانب الصندوق ، يمضي الوقت وهو ينظر إلى الابنة بوجه عاشقٍ كما كانت تقول السيّدة إنغراثيا ، مما جعلني أنسى نظامه الحقيقي . ينهض بعدها ، يقوم بجولة في القرية ، لنلقاه ، في الوقت الذي لا يخطر ببالنا وفي أقل الساعات توقّعاً ، هناك بجانب الصندوق بوجهٍ طريٍّ ونظرة هي من التواضع بحيثُ أنّ أيَ شخص يراه ولا يعرفه يظنّ نفسه أمام القدّيس روكٍ .

ترعرعت روساريو واهنةً و هزيلة دائماً ـ فالحياة التي كان باستطاعتها أن تستمدّها من ثديي أمّي الفارغين قليلة! ـ كانت أيامها الأولى من الصعوبة بحيث أنها أوشكت في أكثر من مناسبة على الرحيل . كان والدي يمضي قلقاً وهو يرى ابنته لا تتقدّم وبما أنه كان يحلُّ كلّ شيءٍ بسكب المزيد من النبيذ في حلقومه ، فقد اضطررنا ، أنا وأمّي ، أن نقضي فترة هي من السوء بحيث أنّنا صرنا نتوق للماضي الذي بدا لنا في غاية القسوة لأننا لم نكن قد عرفنا الأسوأ منه . إنّها ألغاز طبيعة الكائنات البشرية التي تملُّ ما عندها لتشتاق إليه فيما بعد . أمي التي ساءت صحّتها أكثر مما قبل الولادة ، كانت ترقّع بعض قطع القماش المستقلّة وترفسني ، على الرغم من أنّه لم يكن من السهل عليها الإمساك بي ، برأس قدمها حين تتعثّر بي حتى أنّها أحياناً نفّرت الدمَ من مؤخّرتي (بالعذر منكم) أو تترك علامة على أضلاعي ، التي تبدو كما لو أنّهم كووها بحديد دمغ الحيوانات .

وشيئاً فشيئاً راحت الطفلة تتعافى وتكتسب قوّة بتناولها حساء نبيذ أحمر وصفوه لأمّي . وبما أنّ استيقاظها كان طبيعيّاً والزمن لا يمرّ عبثاً ؛

صحيحٌ أنها تأخّرت في المشيِ إلا أنّها انفجرت بالكلام ، وهي ما زالت بضّة للغاية ، بسهولة وطلاقة أدهشتنا جميعاً بملاحتها .

مرّ الزمن الذي يتشابه فيه جميع الأطفال . كبرت روساريو وأوشكت أن تصبح فتاة ،وما أن استرعت انتباهنا حتى وجدنا أنّها أكثر حصافة من ضبٍّ ، وبما أنّه لم يخطر لأحدٍ في أسرتنا أن يستخدم مخّهُ للهدف الذي وُجِد لأجله فسرعان ما أصبحت الصغيرة ملكة البيت وسيّرتنا باستقامة أكبر من القضيب . لو كانت الطيبة من طبيعتها الفطرية لاستطاعت أن تقوم بأعمالٍ عظيمة وبما أنّه من المعروف أن الله لم يبغ أن يُميّز أيّاً منا بنزعة الخير فقد ساق مجراها باتجاه أمور أخرى ، وإذا لم تكن غبيّة فسرعان ما انتبهنا إلى إنّه كان أفضل لها لو كانت كذلك ، فهي صالحة لكلّ شيء ، إلا الأشياء الحسنة ، فهي تسرقُك بملاحةٍ وخفّةٍ غجرية عجوز ، هوت الشربَ في عزّ صباها ، عملت قوّادة لأهواء العجوز ، وبما أنّه ما من أحدٍ اهتمّ بتقويمها وتوجيه مسارها نحو الخير ، فقد مضت من سيئٍ إلى أسوأ ، إلى أن جرفت ذات يوم وعمرها أربعة عشر عاماً القليل ذا القيمة في خصّنا ورحلت إلى تروخيليو ، إلى بيت لا إلبيرا . وبالفعل خلّف رحيلها ما يمكنك أن تتصوّره . والدي ألقى باللائمة على أمّي وأمي ألقت باللائمة على أبي . ظهر غياب روساريو أكثر ما ظهر في صخب أبي ، لأنّه إذا كان في الماضي بوجودها لا يثير الشغب إلاّ في غيابها أصبحت ، ونظراً لغيابها الدائم وعدم وجودها أمامه ، أيّةُ ساعة وأيّ مكان مناسباً لإقامة الدنيا وإقعادها . شيء غريب أنّها كانت الوحيدة بالنسبة لوالدي الذي لا يجاريه إلا القليلون بالعناد والقسوة ، التي يوليها أذناً صاغية ، تكفي نظرة من روساريو لتهدئ من غضبه ، ومجرّد حضورها وفّرَ ضربات مهمّة في أكثر من مناسبة . من كان يظنّ أن ذلك الرجل الضخم سيسيطر عليه مخلوق بضّ!

قضت في تروخيليو خمسة أشهر ، حتى أعادتها بعضُ الحمّيات إلى البيت نصفَ ميتة ، حيث بقيت قرابة العام طريحةَ الفراش ، فالحميات كانت من النوع الخبيث قرّبتها من القبر الذي ونظراً لعمل أبي ـ صحيح أنّه كان سكيراً وعربيداً إلاّ أنه مسيحي قديم وشريف كما يأمر الله ـ قدّسَ وجُهِّز لعلّهم يحتاجون إليه للقيام بالرحلة الأخيرة . كان للمَرض مثل كلّ شيء تقلباته ، فالأيام التي تنتعش فيها تليها ليالٍ نَتَيَقَّن أنّها ستذهب من بين أيدينا . كان مزاج والديَّ كئيباً وأنا لا أحتفظ من السلام في تلك الأيّام إلا بالشهور التي مرّت دون أن يُسمع الضرب بين تلك الجدران ، لقد كان ذلك الزوج من العجائز في غاية الكآبة!... كانت الجارات يحملن غرفهن كلّها على ظهورهنّ ليصفن لها الأعشاب ، لكن وبما أنّ أكثرهن يقيناً عندنا هي إنغراثيا ، فقد اضطررنا للجوء إليها وإلى نصائحها بحثاً عن شفائها ، يعلم الله أنّ العلاج الذي وصفته لها كان معقداً ، لكن وبما أنّها وضعت فيه حواسّها الخمس ، خاصّة وقد بدا أنّه يعيد لها العافية وإن اضطُرِرنا لتجربته ببطء . وكما يقول المثل : العشب الضارّ لا يموت أبداً ودون أن أعني أنّ روساريو كانت سيئة (لكنّني أيضاً لا أضع يدي في النار وأجزم أنّها حسنة) الصحيح هو أنّها وبعد تناول المغلي الذي نصحتها به إنغراثيا لم يبق غير انتظار انقضاء الوقت كي تستعيد عافيتها ومعها وجاهة طلعتها ونضارتها .

ما إن تحسّنت وعادت الفرحة مرّة أخرى إلى والديّ ، اللذين لم يتفقا على شيء إلاّ على انشغالهما بالابنة ، حتى عادت المكّارة إلى قرصنتها ، لتملأ كيسها بتوفيرات الأب ، وأقلعت طائرةً دون أيّ احترام ، كما لو على الطريقة الفرنسية ورحلت ، في هذه المرّة سالكة الطريق إلى ألمِنْدردالِخو ، حيث توقّفت في بيت نيبيسْ لا مادريلِنيا ، صحيح ، أو هكذا أعتقد ، أنّها

مهما بلغت نذالتها دائماً يبقى عندها شيء من حرارة طيبة ، لأنّ روساريو لم ترمِنا قط في النسيان الكلّي ، فرمتنا ذات مرّة ـ في أيام قديسينا أو عيد الميلاد ـ بصدارة وإن كانت ضيقة تماماً ونتلقاها كإزار لبطنٍ شبعان ، إلا أنّها تمتلك فضيلتها ، وإن كانت ذات بهرجٍ أكثر من اللازم بالنسبة لمن عليه أن يرتديها للقداس ، فهي أيضاً لم يظهر عليها أنّها تعيش وفرةً . يبدو أنّها تعرّفت في ألمِنْدرالخو على الرجل الذي سيودي بها إلى الإفلاس ، ليس إفلاس الشرف ، فهو لا بدّ كذلك آنذاك ، بل إفلاس الجيب ، الذي كان الشيء الوحيد الذي تتطلّع إليه بعد أن فقدت الآخر . كان الوغدُ يُدعى بَاكو لوبَثْ ويُعرَف باسمه السيّئ الممطوط . عليّ الاعتراف بأنّه كان فتى وسيمُ وإن لم يكن ذا نظرة سديدة ، لأنّه ونظراً لأنّ مكان إحدى عينيه ، حيث وحده الله يعلم في أيّة مأثرة فقد الأصلية ، يوجد واحدة من بلور ، فنظرته مضلّلة ، تضلّل أكثر الناس دهاءً ، كان طويلاً ، نصف أشقر ، رشيق القدّ ويمضي بخطّ مستقيم بحيث أنّ من سمّاه الممطوط لم يخطئ . ولم يكن عنده من شيء أفضل من وجهه ، لأنّه ونظراً لأنّ النساء البلهاوات جداً يُعِلْنَه ، فقد فضّل الرجل ألا يعمل ، الأمر الذي بدا لي سيئاً ، لا أدري ما إذا كان بفعل أنّني لم أملك فرصة ممارسته . بحسب ما يحكون مرّ زمن عَملَ فيه مصارع عجول في ساحات مصارعة الثيران الأندلسية وأنا لا أدري ما إذا كان عليّ أن أصدّق هذا ، لأنه لم يبدُ لي رجلاً شجاعاً إلاّ مع النساء ، لكن وبما أن هؤلاء وبينهن أختي يصدقنه تماماً فقد عاش الحياة بعرضها ، لأنّك تعرف كم تمنح النساء من قيمة لمصارعي الثيران . تعثّرت به ، ذات مرّة مضيت فيها بحثاً عن صيد الحجل ، طائفاً حول مزرعة لوس خارالِسْ ـ العائدة للسيّد خِسوس ـ ، وكان قد خرج من ألمِندرالخو مسافة خمسمئة خطوة في الجبل ليستنشق الهواء ، كان أنيقاً بطقمه القهويّ وقبّعته وخيزرانته في

يده . حيّا كلٌّ منا الآخر . وبما أنّ الوغد رأى أنّني لا أسأله عن أختي ، أراد أن يزلق لساني في محاولة منه ليستنطقني ، فقاومت ، ولا بدّ أنّه انتبه وحين وضعنا يدينا الواحدة فوق الأخرى ، كي يمضي كلّ في سبيله ، سأل وكأنّه غير راغب :

- وروساريو ؟

- أنت تعرف...

- أنا ؟

- يا رجل! إذا كنت أنت لا تعرف...!

- ولماذا عليَّ أن أعرف ؟

قال ذلك بجديّة تجعل أيّ شخص يراه يقول إنّه لم يكذب في حياته قطّ ، كان يزعجني التحدث معه عن روساريو ، وها أنت ترى كيف هي الأمور .

كان الرجل يضرب بخيزرانته ضربات خفيفة على عُشيبات الزعتر .

- صحيح ، كي تعرف! حسن! ألم تكن تريد أن تعرف ؟

- انظر ، يا ممطوط!... انظرْ ، يا ممطوط! أنا رجل حقيقيّ ولا تهمني الكلمات! لا تغوني! لا تغوني!...

- ولماذا سأُغويك ، إذا لم يكن عندك شيء ؟ لماذا تريد أن تعرف عن روساريو ؟ وما علاقتك بروساريو ؟ أختك ؟ طيّب وماذا ؟ أيضاً هي خطيبتي . إذا كان هذا ما تريده .

كان ينتصر عليَّ بالكلام ، لكنّني أقسم لكَ بأمواتي أنّنا لو توصّلنا إلى استخدام الأيدي لقتلته قبل أن يمسّ شعرة فيَّ . أردت أن أبرد نفسي لأنّني

أعرف طبيعتي ، ثمّ إنّه ليس مستحسناً في لقاء رجلٍ برجل أن يكون في يد واحدٍ بندقية والآخر دونها .

ـ انظر ، يا ممطوط ، خيرٌ لنا أن نسكت! هي خطيبتك ؟ حسن لتكن! وأنا ما همّني ؟

ضحك الممطوط ، بدا وكأنّه يريد أن يشاجر .

ـ هل تدري ماذا أقول لك ؟

ـ ماذا ؟

ـ لو كنتَ أنت خطيب أختي لقتلتك .

يعلم الله أنَّ سكوتي في ذلك اليوم كلّفني صحّتي ، لكنّني لم أبغِ تلقينه درساً ، لا أدري لماذا حدث ذلك . استغربت أن يكلمني بهذه الطريقة . ما من أحد في القرية كان ليجرأ على أن يقول لي نصف ما قاله .

ـ وإذا صادفتك في يومٍ آخر تحوم حولي سأقتلك في ساحة المعرض .

ـ هذا تبجح كبير!

ـ وطعناً!

ـ انظر ، يا ممطوط!... انظرْ ، يا ممطوط!...

... ...

انغرزت في خصري في ذلك اليوم شوكة ما تزال موجودة فيه حتى الآن .

أمّا لماذا لم أقتلعها في تلك اللحظة فهذا ما لا أعرفه حتى الآن... مرّ زمن وجاءت أختي لتقضي فترة أخرى بيننا لتتعافى من حميات أخرى ، حكت لي إلى أين انتهت تلك الكلمات ، فحين وصل الممطوط في تلك الليلة إلى بيت نيبيِس ليرى روساريو ناداها جانباً .

ـ هل تدرين أنّ لك أخاً ، لا هو أخٌ ولا هو شيء ؟

... ...

ـ وأنّه ما إن يسمع صوتاً حتى يختبئ مع الأرانب ؟

تنطّحت أختي للدفاع عنّي لكن دون جدوى ، فالرجل انتصر . انتصر عليّ ، وكانت المشاجرة الوحيدة التي خسرتها لأنّني لم أمض إلى مجالي .

ـ انظري ، يا حمامة ، دعينا نتكلّم عن شيءٍ آخر . ماذا هناك ؟

ـ ثمانية بيزيتات .

ـ فقط ؟

ـ فقط . ماذا تريد ؟ فالأيام سيئة!...

انهال الممطوط على وجهها بالخيزرانة حتى تعب .

ثمّ...

ـ هل تدرين أنّ لك أخاً لا هو أخٌ ولا هو شيء ؟

... ...

استحلفتني أختي بصحّتها أن أبقى في القرية .

كان كما لو أنّ شوكة الخاصرة تحرّكت . أمّا لماذا لم أقتلعها في تلك اللحظة فهذا ما لا أعرفه حتى الآن...

٤

ستعرف كيف تعذرني على قلّة الترتيب في الحكاية ، فمتابعتي للشخص بدل الزمن تجعلني أمضي قافزاً من البداية إلى النهاية ومن النهاية إلى البداية ، مثل جرادةٍ بحرٍ مضروبة ، لكن الذي يحدث هو أنّها ، بطريقةٍ ما ، ليست كذلك ، ويمكنني أن أمضي بها إما لأنّها تخرج معي متفرّقة وكما ترد إلى رأسي دون أن أتوقّف عند بنائها كرواية ، وإمّا لأنّها قد لا تخرج معي بطريقة أخرى ، فأنا دائماً على حافّة الخطر الذي ينتابني حين أبدأ أتكلّم وأتكلّم حتى أشعر فجأة كأنني مخنوق وفاتر فلا أعرف من أين أخرج .

كانت السنوات تمرّ علينا كما تمرّ على الجميع ، والحياة في بيتي تمضي في المسالك ذاتها دائماً ، وإذا ما رفضت الاختراع فالأخبار التي أستطيع أن أقدمها لك عن تلك المرحلة ، ولا تستطيع تصوّرها ، قليلةٌ .

بعد خمسة عشر عاماً من ولادة الطفلة وفي الوقت الذي كانت فيه أمي في غاية الضمور ونظراً للوقت الذي انقضى يمكن لأيّ أن يفكر بأيّ شيء إلا بأنها ستلد أخاً جديداً ، فقد امتلأ بطن العجوز ، والله أعلم ممّن ، لأنّني أشكّ بأنّها في تلك المرحلة كانت تعاشر السيّد رفائيل ، بشكل لم يبق إلاّ

انتظار أيام الحمل لتنتهي باستقبال واحد آخر في الأسرة . لكنّ ولادة المسكين ماريو ـ هكذا كان علينا أن نسمي الأخ الجديد ـ كانت مضطربة ومزعجة ولم يكن من الممكن أن تكون بطريقة أخرى ، لأن ضجّة أمي عند الولادة ، وللطامّة الكبرى ، وإذا ما بدا لك ذلك قليلاً ، تصادفت مع موت أبي ، الذي لو لم يكن مأساوياً لأثار بالتأكيد الضحك ؛ هكذا كنتُ أفكّر ببرودة . كان قد مضى على حبسنا لوالدي في الصوان يومين حين جاء أخي ماريو إلى الدنيا ، عضّه كلبٌ مصاب بداء الكلب ، وعلى الرغم من أنّه بدا أنّه نجا في البداية منه ، فقد انتابته بعد ذلك ارتعاشاتٌ استنفرتنا جميعاً . وقد أعلمتنا السيّدة إنغراثيا أنّ نظرته كانت ستُسبّب الإجهاض لأمّي ، وبما انّه لم يكن للمسكين من حلٍّ جهدنا في حبسه بمساعدة من بعض الجيران وبما استطعنا من الحذر ؛ لأنّه راح ينهش نهشاً لو أدرك به أكثر من واحدٍ لاقتلع ذراعه ، ما زلتُ حتى الآن أذكر تلك اللحظات بألمٍ وخوف... يا إلهي كم من الجهد اضطررنا أن نبذل للتمكّن منه . كان يرفس مثل أسدٍ ويقسمُ أنّه سيقتلنا جميعاً وفي عينيه من النار ما يجعلني أقسمُ واثقاً أنّه سيفعل ذلك لو سمح الله له بذلك . كان قد مضى يومان على حبسنا له ، كما قلتُ ، وهو يصرخُ ويرفس الباب ، الذي اضطررنا إلى دعمه ببعض العوارض الخشبية ، لذلك لا أستغرب أن يكون قد جاء ماريو مرعوباً وأبله . انتهى صراخ أمّي بأبي في الليلة التالية إلى الصمت ـ كان يوم الملوك ـ ، وعندما ذهبنا لإخراجه معتقدين أنّه مات وجدناه هناك ملتصقاً بالأرض يعلو وجهه من الرعب ما جعله يبدو كما لو أنّه دخل الجحيم . أخافني إلى حدّ أنّ أمي ضحكت بدل أن تبكي ، كما كنتُ أتوقّع ، فلم يكن أمامي إلاّ أن أحبس الدمعتين اللتين أرادتا الخروج حين رأيت الجثة بعينيها المفتوحتين والمليئتين بالدم وفمها مفتوح ونصف لسانها البنفسجي خارجه . ما إن رآني

دون مانويل حين هرع للجنازة حتى ألقى عليّ موعظة . لا أتذكر جيّداً ما قاله لي ، لكنّه كلّمني عن الحياة الأخرى ، عن السماء والجحيم ، عن مريم العذراء ، عن ذكرى والدي وحين خطر لي أن أقول له إنه فيما يتعلّق بذكرى والدي من الأفضل عدم ذكره ، مرّ دون مانويل بيده على رأسي وقال إنّ الموت ينتقل بالبشر من عالمٍ إلى آخر وإنّه (أي الموت) لا يحبّ أن نكره من حمله هو ليحاكمه الله . حسن ، لم يقله لي بهذا الشكل ، بل قاله لي بكلمات محدّدة ودقيقة تماماً ، لكن ما قاله لا يتجاوز كثيراً ما خلّفته مكتوباً . ومنذ ذلك اليوم وكلّما رأيت السيّد مانويل أحيّيه وأُقبّل يدَه لكن عندما تزوجت اضطرت زوجتي أن تقول لي إنّني أبدو لوطياً وأنا أقوم بذلك ، طبعاً ما عاد باستطاعتي أن أسلّم عليه ، وعرفت فيما بعد أن السيّد مانويل قال إنّني تماماً مثل وردة على مزبلة ، ويعلم الله كم رغبت في تلك اللحظة بخنقه ، ثمّ انقضت الحالة بالتدريج وبما أنّني ذو طبيعةٍ عنيفةٍ وطيّب القلب ، فقد انتهيت إلى نسيانه ثمّ إنّني وإذا ما فكّرت بالأمر جيّداً وجدت أنّني لم أكن قط واثقاً تماماً من أنّني فهمت الأمر جيّداً ، فربّما لم يقل السيّد مانويل شيئاً ـ يجب ألاّ نصدق كل ما يقوله الناس ـ ثم حتى لو قاله... من يعلم ماذا أراد أن يقول! ومن يعلم ما إذا لم يُرِد أن يقول ما فهمته أنا!

لو كان ماريو واعياً حين غادر وادي الدموع هذا ، بالتأكيد ما كان غادره بكلّ ذلك الرضى عنه . قليل ما عاشه بيننا ، بدا وكأنّه شمّ القرابة التي تنتظره معنا وفضّل التضحيةَ بها ورفقةَ الأبرياء في اليمبوس . يعلم الله أنّه أصاب في اختيار الطريق وكم من المعاناة وفّر على نفسه حين وفّر على نفسه السنوات! لم يكن قد بلغ حين غادرنا العشر سنوات بعد ، والتي إذا بدت قليلة بالنسبة للمعاناة الكبيرة التي كان سيعانيها ، فلا بدّ أنّها كانت كافية كي يستطيع الكلام والمشي ، وهما ما لم يعرفهما ، فالمسكين لم

يتجاوز الزحفَ مثل أفعى على الأرض ، وإصدار بعض الأصوات من حنجرته وأنفه وكأنّه فأر : الشيء الوحيد الذي تعلّمه . في السنوات الأولى من عمره أعلمونا جميعاً أنّ البائس وُلِد أبلهَ وسيموت أبله . تأخّر سنة ونصف حتى ظهر العظمُ الأوّل في فمه وحين حدث ذلك جاء خارج مكانه الحقيقي بحيث أنّ السيّدة إنغراثيا ، التي شكّلت في كثير من الأحيان رحمة لنا ، اضطرّت لاقتلاعه برباط كيلا ينغرز في لسانه . أصيبَ في تلك الأيام ، من يدري ما إذا كان نتيجة الدم الكثير الذي بلعه بسبب السنّ ، بحصبة أو طفح جلدي في مؤخرته (مع العفو) سلخ أليتيه وأظهر اللحم حيّاً لاختلاط البول بصديد البثور ، وحين اضطروا لمداواة مكان الألم بالخلّ والملح بكى المخلوق بكاء يهزّ صاحب أقسى قلب . قضى بعض الوقت هادئاً ، يلعب بقنينة ، كانت أكثر ما يلفت انتباهه ، أو مستلقياً تحت الشمس ، لينتعش ، في الحوش أو باب الشارع ، وهكذا راح ينتقل بين شدٍّ ورخي ، مرّة يتحسّن وأخرى يسوء ، لكنّه أكثر هدوءاً إلى أن جاء يوم - وهو في الرابعة من عمره - انقلب عليه الحظّ تماماً دون أن يكون له يد أو رغبة في ذلك أو أن يكون قد أزعج أحداً أو سبّ الله ، فأكل خنزير قذرٌ (عذراً) أذنيه . وضع له السيّد رايموندو ، الصيدلاني مسحوقاً أصفر ، وسيروفورم وكانت رؤيته أصفر ودون أذنين تسبب من الألم ما جعل جميع الجارات ، معظمهنّ ، يأتين لمواساته أيامَ الآحاد بالزلبياء وأخريات باللوز أو الزيتون بالزيت أو بقليلٍ من السجق... مسكين ماريو ، كيف كان يشكرهنّ على مواساتهنّ بعينيه السوداوين! وإذا كان في وضع سيئٍ حتى ذلك الوقت فأسوأ منه ما كان ينتظره بعد ما حدث له مع الخنزير (عذراً) ، يقضي الليل والنهار باكياً ، عاوياً مثل مهجور وبما أنّ صبر الأمّ القليل نفد في وقتٍ كانت بأمَس الحاجة إليه فقد قضى شهوراً ملقياً على الأرض ، يأكل ما

يرمون به إليه ، متسخاً إلى حدّ أنّني ، أنا الذي لم أغتسل كثيراً ، لماذا الكذب! أصبتُ بالاشمئزاز . حين كان يظهر له خنزير (عذراً) ، وهو ما يحدث في الريف أكثر مما يرغب المرء ، كان أخي يحتدم إلى حدّ الجنون ، يصرخ أكثر من المعتاد ويهرع للاختباء خلف أيّ شيء ويحتدم الذعر في عينيه ووجهه إلى حدّ أنّني أشكّ أنهّ لا يستطيع أن يوقف إبليس نفسه من الصعود إلى الأرض .

أتذكّر يوماً ـ وكان يوم أحد ـ خطر له ، خلال بعض تلك الارتعاشات التي تحمل الكثير من الرعب والحنق في الداخل ، أن يهاجم في هربه ـ الله أعلم لماذا ـ السيّد رافائيل الذي كان في البيت ، لأنّه منذ موت والدي كان يدخل ويخرج منه مثل أرض محتلة ولم يخطر للمسكين إلاّ أن يعضّ العجوز في رجله ، وهو ما لم يكن ليفعله قط لأنّ هذا ناوله رفسة على إحدى الندب تركته شبه ميت وفاقداً الوعي يتدفق منها الدم فظننت أنّه سينفق . كان العجوز يضحك ، كما لو أنّه قام بمأثرة ، فكرهته منذ ذلك اليوم كراهية أقسم بمجدي إنّه لو لم يبعده الله عن متناول يدي لأدميته ما إن ملكت فرصة لذلك .

بقي المخلوق مسجّى على طوله وأمّي ـ أؤكّد لك أنّني خفت في تلك اللحظة من كثرة نذالتها ـ لم تأخذه وراحت تضحك مشكلة جوقة مع السيّد رافائيل . بالنسبة إليّ ، يعلم الله أنّه لم تنقصني العزيمة لرفعه ، لكنّني فضلت عدم القيام بذلك... ولو أنّ السيّد رافائيل ناداني وقتذاك بالرخو والله لكنت سحقته أمام أمي!

غادرتُ إلى البيوت في محاولة للنسيان ، التقيتُ في الطريق بأختي ـ كانت آنذاك في القرية ـ قصصت عليها ما حدث فرأيت في عينيها من

الكراهيـة ما جعلني أفكّر بأنّه لا بدّ عدوّ سيئ ، تذكّـرت ، لا أدري لماذا ، الممطوط ، وضحكت من التفكير بأنّها قد تغرز فيه تينك العينين...

حين عدنا إلى البيت بعد ساعتـين طويلتين من الحادث كان السيّد رافائيل يودّعها وماريو ما يزال ملقياً على الأرض في ذات المكان الذي تركته فيه ، يئن أنيناً خافتاً ، فمه على الأرض وندبته أكثر ازرقاقاً وبؤساً من مهرج في الصوم الكبير ، رفعته أختي ، التي اعتقدت أنّها ستقيم الدنيا وتقعدها ، عن الأرض لتضعه على جنبه في الحوض... بدت لي في ذلك اليوم أجمل من أيّ وقتٍ مضى ببدلتها الزرقاء كالسماء وروح الأم الجبلية ، هي التي لم ولن تكون أمّاً...

حين انتهى السيّد رافائيل إلى الرحيل أخذت أمّي ماريو ، وضعته في حضنها وراحت تلعق جرحه طوال الليل ، مثل كلبة ولدت توّاً وتلعق جراءها ، استسلم الصغير للمحبة مبتسماً... غفا وعلى شفتيه ما تزال ترتسمُ علامة أنه ابتسم . كانت تلك الليلة بالتأكيد المرّة الوحيدة التي رأيته يبتسم فيها .

٥

مرّ بعض الوقت دون أن يُفجع من جديد ، لكن وبما أنّ من يلاحقه القدرُ لا يسلم حتى ولو اختبأ تحت الحجارة ، جاء يوم لم يعثر عليه في مكان وظهر غارقاً في خابية زيت . عثرت عليه أختي روساريو... كان في وضعية بومة لصّة حملتها الريح ، ملقياً على حافة الخابية وأنفه على طين القاع... وحين رفعناه سال خيط زيت من فمه مثل سلك ذهبي التفّ على بطنه ، وشعره الذي كان دائماً مطفأ اللون يلمع لمعاناً هو من النضارة بحيث يجعل المرء يفكّر بأنّه انتعش بموته . هذا هو كل ما أتذكره من غرابة في موت ماريانو...

كما أنّ أمّي لم تبكِ على موت ابنها ، جافّة هي أحشاء المرأة قاسية القلب بحيث لا يبقى عندها دموع حتى للدلالة على فاجعة ولدها... من ناحيتي أستطيع القول ، ولا أخجل منه ، إنّني بكيتُ مثل أختي روساريو ، وصار عندي من الكراهية تجاه أمي ما تنامى بسرعة ووصل حدّ خوفي من نفسي . الأم التي لا تبكي مثل نبع لا يتدفّقُ ماءً ، لا فائدة منه ، أو مثل طائر سماء لا يصدحُ ، إذا شاء الله سقط جناحاه لأنّ الضواري بحاجة إليه!

فكّرتُ كثيراً ، أحياناً كثيرة والآن بالذات ، ما إذا كان عليّ أن أقول الحقيقة ، بالدافع الذي يجعل أمّاً تفقد الاحترامَ أولاً ثم الحنان والآداب مع مرور السنين ، فكّرت كثيراً لأنّني أردت أن أحدث جلاء في ذاكرتي يسمح لي بمعرفة الزمن الذي تخلت فيه عن كونها أمّاً في قلبي ، والوقت الذي صارت فيه عدواً لي ؛ عدواً ضارياً ، إذ لا توجد كراهية أسوأ من كراهية الدم ، عدواً استهلك كلّ مرارتي ، لأنّه لا أحد يكرَه بالاندفاع الشديد ككره الكارِه لشبيهه ، الذي يصل به حدّ النفور منه . بعد أن فكّرتُ طويلاً ولم ينجلِ أيّ شيءٍ جلاءً تاماً ، باستطاعتي التأكيد أنّني فقدت احترامي لها منذ زمن بعيد ، حين لم أكن أجد فيها فضيلة أقلّدها ولا هبة من الله أنسخها عنها ، وكان عليها أن ترحل عن قلبي حين رأيت فيها من الشرّ ما لا يسعه قلبي وإيّاها . كراهيتها ، بمعنى الكراهية ، تأخرت بعض الوقت ـ لا الحب ولا الكراهية نتاج يوم واحد ـ فإذا ما أشرت إلى أيام موت ماريو قد لا أخطئ كثيراً في تاريخ ظهورها .

اضطررنا إلى تجفيف لحمه بخرقِ الكتّان ، كي لا يذهب دهيناً أكثر من اللازم إلى يوم الحساب وإلى تجهيزه بلباس جيّد من شيث كان عندنا في البيت وخفٍ من القنب ذهبتُ إلى القرية لإحضاره ، وبربطة عنق بنفسجية فاتحة ، معقودة عند الحنجرة مثل فراشة حطّت لبراءتها على ميّت . السيّد رافائيل الذي لا بدّ شعر بنفسه محسناً مع الميت ، الذي عامله في حياته بكلّ قسوة ، ساعدنا على تحضير التابوت ، كان الرجل يروح ويغدو من مكان إلى آخر ، نشيطاً وفخوراً مثل عروس ، مرّة بالمسامير وأخرى بهذا اللوح من الخشب وربّما بحُقٍّ الإسبيداج . كان لا بدّ أن ينصبّ تفكيري كلّه على نشاطه وفخره ، لأنّني ودون أن أعرف آنئذٍ ولا الآن لماذا نعم ولا لماذا لا ، كان قلبي يحدثني أنّه كان يستحم في داخله بماء الورد من الفرح . وحين كان يقول بإيماءة وكأنّه شارد :

ـ أحبّه الله! الملائكة إلى السماء!... ـ يتركني في حالة تفكير يكلّفني الآن عملاً منقطع النظير إعادة بناء ما كان يعتمل في صدري . ثم يكرّر بعدها كلازمة ، وهو يسمّر الألواح أو يدهن :

ـ الملائكة إلى السماء! الملائكة إلى السماء! ـ كانت كلماته تطرق على قلبي كما لو أنّ فيه ساعة... ساعة تنتهي إلى تفجير صدري... ساعة تستجيب شيئاً فشيئاً لكلماته ، المطلقة كما لو بحذر ، وتستجيب لعينيه ، عيني الأفعى ، الصغيرتين الرطبتين والزرقاوين ، اللتين كانتا تنظران إليّ كما لو بقصديّة كاملة لاستمالتي ، في الوقت الذي صارت الكراهية المكبوتة جداً هي الوحيدة التي تجري في دمي تجاهه... أتذكر بانزعاج تلك الساعات :

ـ الملائكة إلى السماء! الملائكة إلى السماء!...

يا لابن أمّه كيف كان الثعلب الماكر يتظاهر! دعنا نتكلّم عن شيء آخر .

لم أعرف قط الحقيقة ، لأنّه أيضاً لم يخطر لي التفكير بها بجدّية ، كيف هي الملائكة ، مضى وقت كنت أتصوّرها فيه شقراء ترتدي تنورات زرقاء أو ورديّة ، طويلة ومضى وقت اعتقدتُ فيه أنّها بلون الغمام ورقيقة كساق القمح . ومع ذلك فإنّ ما أستطيع تأكيده هو أنّها مختلفة عن أخي ماريو ، وهو ما دفعني للتفكير بأنّ وراء كلمات السيّد رافائيل يختبئ قط ونيّة هي من السوء والعواقب الوخيمة ما يمكن أن يُنتَظَرَ من دناءته الكبيرة .

كانت جنازته ، كما جنازة أبي قبل سنوات ، بائسةً ومملّة ؛ لم يجتمع خلف تابوته ، دون مبالغة ، أكثر من خمسة أو ستة أشخاص : السيّد مانوِل ، سانتياغو خادم القدّاس ، لولا ، ثلاث أو أربع عجائز وأنا . سانتياغو كان يمضي بالصليب في المقدّمة صافراً ورافساً الحصى ، خلفه التابوت ، ثم

السيّد مانولِ بردائه الكهنوتيّ الأبيض فوق الدثار ، كأنّه ماشط وخلفهم العجائز يبكائهن وتأسفهنّ الذي يجعل كل من يراهنّ يظنّهن جمعاً أمّهاتِ من يمضي محبوساً في طريقه إلى الأرض .

كانت لولا آنذاك شبه خطيبتي ، وأقول شبه لا أكثر ، لأنّنا في الواقع وعلى الرغم من تبادلنا النظرات ، مع بعض الميل لم أجرؤ قط على قول كلمة حبّ واحدة لها ، ينتابني بعض الخوف من أن ترفضني ، وإذا كانت فعلاً تشدّني شداً في معظم الأحيان كي أقرّر ، فاستحيائي كان دائماً أقوى ويجعلني أمطّ الموضوع وأمطه حتى طال أكثر من اللازم . كنت بين الثامنة والعشرين أو الثلاثين من عمري ، وهي أصغر بقليل من أختي روساريو ، في الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين من عمرها ؛ طويلة ، سمراء اللون ، سوداء الشعر وعيناها من العمق والسواد بحيث أنّهما تجرحان حين تنظر بهما ، مكتنزة اللحم كأنّه مشدود عافيةً ، ونظراً للنموّ الهائل الذي يظهر عليها فإنّ أي شخص يلتقيها سيعتقدُ بأنّها أمٌّ . ومع ذلك وقبل أن أتابع وأجازف بالنسيان ، أريدُ أن أقول لك ، كي أراعي الحقيقة في كلّ شيء ، إنّها كانت في تلك المرحلة كاملة كما في يوم ولادتها وجاهلة للذكر مثل راهبةٍ مبتدئة ، هذا ما أريد تأكيده كي أتلافى أن يكوّنوا فكرة سيّئة عنها ، أما ما فعلته فيما بعد ـ الله وحده يعرف إلى أيّ حدّ ـ فهو مسألة تتعلّق بالضمير ، لكن بالنسبة إلى ما فعلته في ذلك الوقت فأنا واثق أنّها لم تكن تملك أدنى فكرة عن الغلمة ولا أشكّ لحظة واحدة في تسليم روحي للشيطان لو ثبت العكس . كانت تمضي بعزم وثقة كبيرين وبطلاقة وكبرياء يجعلانها تبدو أيّ شيء ما عدا أن تكون فلاّحة مسكينة ، وشعرها المجدول في ضفيرة غليظة تحت الرأس يضفي عليها إحساساً من السطوة بحيث أنّه بمرور الشهور وحين أصبحت آمرها كزوج صارت تتمتع بضربي بها على

خدّيَّ ، كانت ناعمة وفوّاحة كالشمس والزعتر ، وقطرات العرق الباردة تظهر على الزغب فوق شفتها العليا حين تخجل...

خرجت الجنازة ، لنعد إلى موضوعنا ، بسهولة ، وبما أنّ الحفرة كانت جاهزة لم يكن علينا إلاّ أن نضع أخي داخلها وننتهي من إلقاء التراب عليه . صلّى السيّد مانولِ صلوات لاتينيةً وخرّت العجائز على ركبهنّ ، حين خرّت لولا على ركبتيها ظهرت ساقاها ، بيضاوين ، مكتنزتين مثل سجقتين فوق الجوربين الأسودين... أخجل مما كنتُ أريدُ قوله ، لكن ليجعل الله به خلاص روحي كم كلّفني من الجهد : في تلك اللحظة فرحتُ لموت أخي... فساقا لولا كانا يتلألآن مثل الفضّة ، فطرق الدمُ جبيني وبدا قلبي كأنّه يريد أن يخرج من صدري...

... ...

لم أرَ السيّد مانويل ولا العجائز يرحلون . كنت كالطائش ، حين شرعت بالعودة للانتباه إلى الحياة ، جالساً على التراب ، الذيّ حُرّك تواً فوق جثّة أخي ماريو ؛ بقي سبب بقائي والوقت الذي قضيته هناك شيئاً غامضاً لم أتحقّق منه قط . أتذكّر أن الدم كان ما يزال يضرب على صدغيَّ وقلبي يريد أن ينفجر... كانت الشمس تغرب وأشعتها الأخيرة ستطعن شجرةَ السرو الحزينة ، رفيقتي الوحيدة... كان الطقس حاراً ؛ اجتاحت رعشاتٌ جسدي كلّه ، لم أكن أستطيع حراكاً ، تسمّرتُ كما لو بنظرة ذئب...

وقفتْ لولا إلى جانبي وثدياها يرتفعان وينخفضان مع تنفسها...

ـ وأنت ؟

ـ ها أنت ترى!

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

ـ لا شيء! هنا...

نهضتُ وأخذتها من ذراعها .

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

ـ لا شيء! ألا ترى ؟ لا شيء!...

كانت لولا تنظر إليّ نظرة مخيفة ؛ وصوتها كأنّه من العالم ا
وسفليّ ، كأنه صوت شبح...

ـ أنت مثل أخيك!

ـ أنا ؟

ـ أنت! نعم!

... ...

نشبت معركة ضارية . كانت وهي منهارة على الأرض ، مثـ
من أيّ وقت مضى... ثدياها يصعدان ويهبطان مع تنفّسها بسرعة
مرّة أكبر... أمسكت بها من شعرها ، ثبّتها جيّداً على الأرض... كا
تنزلق...

عضضتُها حتى أدميتها ، حتى استسلمت وصارت وديعة مثل

... ...

ـ هل هذا ما تريدينه ؟

ـ بلى!

ابتسمت لولا لي بأسنان متساوية . راحت بعدها تمسح لي شعري .

ـ لستَ كأخيك!... أنت رجل!...

كانت الأرض طريّة ، أتذكّر هذا جيّداً... وعلى الأرض بضع عشرة شقيقة من شقائق النعمان لأخي الميت : ستّ قطرات دم...

ـ لستَ كأخيك! أنت رجل!...

ـ هل تحبّينني ؟

ـ بلى!

٦

شاءت العناية الإلهية أن يمضي خمسة عشر يوماً على كتابةِ ما سبق ، انشغلتُ خلالها باستجوابات محامي الدفاع وزياراته من جهة وبانتقالي إلى هذا المكان الجديد من جهة أخرى ،لم أملك لحظة واحدة للإمساك بالريشة . الآن وبعد قراءة هذه الرزمة من الورق ، وهي ليست كبيرة بعد ، تختلط في رأسي أكثر الأفكار تبايناً بتهوّر ودوارٍ لا أتمكّن معهما ، مهما فكّرتُ ، من الرسوّ على أيّ منها . فاجعة كبيرة ، كما لا بدّ أنّك استطعت أن ترى ، هي التي رويتها لك توّاً ، وأفكّر بأن قواي ستخور عندما سأواجه ما تبقّى منها عندي ، وهي أكثر شقاءً ، يرعبني التفكير في شدّة أمانة الذاكرة ، في هذه اللحظات التي تتحوّل فيها جميع أحداث حياتي ـ التي لا يوجد طريقة لعينة للعودة إليها ـ إلى كتابة على هذه الأوراق بالوضوح الذي لكتابة على السبّورة . شيء طريف ـ ومحزن أيضاً ، الله يعلم ذلك جيّداً! ـ التوقّف للتفكير بأنّني لو خطر لي القيام بجهدِ الذاكرة الذي أقوم به في هذه الأيام قبل سنوات ، لكنتُ في هذه الساعات أتناولُ الشمس في الحوش ، أو أصيد الأنقليس في الجدول أو ألاحق الأرانب في الجبل بدل أن أكتب في زنزانة... ولَقّمْتُ بأيّ شيء ـ دون التوقف عنده ـ مما يقوم به معظمُ الرجال ، لكنت

حراً - دون التوقف عند هذا أيضاً - مثل معظم الرجال ، الذين هم أحرار ، ولكان أمامي ، الله يعلم ، كم من سنوات الحياة أحياها - دون أن ينتبهوا إلى أنّهم يستطيعون استهلاكها ببطء...

المكان الذي جاءوا بي إليه أفضل ، فمن النافذة أرى حديقة صغيرة معتنى بها ونظيفة مثل صالة ، ووراء الحديقة يمتدّ السهل حتى الجبال كستنائيّاً مثل جلد الرجال وتمرّ فيه - أحياناً - قافلة بغالٍ تذهب إلى البرتغال ، وحمير خابّة تذهب إلى الأكواخ ونساء وأطفال يذهبون إلى البئر فقط...

أنا أستنشق هوائي ، الذي يدخل ويخرج من الزنزانة ، لأنّه لا يذهب معه شيء ، هذا الهواء نفسه الذي ربّما استنشقه الطحّان الذي يعبر غداً أو في أيّ يومٍ آخر..أرى الفراشة كلّها ألوان تحلّق مرتبكة فوق عبّاد الشمس ، تدخل إلى الزنزانة تحوم مرّة أو مرّتين وتخرج ، لأنّه لا يذهب شيءٌ معها ويمكن أن تستقرّ على وسادة المدير...آخذ الفأر الذي يأكل ما تركته ، أنظر إليه وأتركه - لأنّه لا يذهب شيءٌ معه - أرى كيف يهرب بخطوته الصغيرة الناعمة ليختبئ في جحره ، هذا الجحر الذي يخرج منه ليأكل وجبة السجين الغريب ، الذي لن يبقى في الزنزانة إلاّ فترة وعليه أن يخرج منها في معظم الأحيان إلى الجحيم...

ربّما لن تصدّقني لو قلتُ لك إن من الحزن والغمّ ما يسكنني في هذه اللحظات ما يجعلني أؤكّد لك أنّ ندمي ليس أقلّ من ندم قدّيس ، ربّما لن تصدّقني ، لأنّ التقاريرَ التي تعرفها عنّي لا بدّ أنّها في غاية السوء ، والحكمَ الذي كونته عني قد تشكّل من خلالها ، لكن ومع ذلك... أقول لك ، ربّما ليس إلا لمجرّد القول ، ربّما ليس إلاّ لأنّني لا أنزع من دماغي فكرة أنّك

ستعرف كيف تفهم ما أقوله لك وتصدّق ما لن أقسم لك من أجله بمجدي ، لأنّه لن يكون لقسمي به قيمة... أقول إنّ المرارة التي تصعدُ في حنجرتي ، تبدو كما لو أنّ قلبي يصنّع المرارةَ بدلَ الدم ، تصعد وتهبط في صدري مخلّفة مذاقاً حامضاً في حلقي ، تبلل لساني بطعمها ، تجفّف داخلي بهوائها الثقيل والخبيث كهواء قبر...

توقّفت بعضَ الوقت عن الكتابة ، ربّما مرّت عشرون دقيقة ، ربّما ساعة ، وربّما ساعتان... في الدرب كان يمرّ بعض الأشخاص ـ أشاهدهم جيّداً من نافذتي! ـ . ربّما ونظراً للحالة الطبيعية التي يمضون بها لم يفكّروا بأنّني أنظر إليهم . كانوا رجلين وامرأة وطفلاً ، بدا أنّهم سعيدون في سيرهم في الدرب... الرجلان في الثلاثين من عمرهما ، المرأة أقل بقليل ، الطفل لا يتجاوز السادسة . كان حافياً ، يقفز مثل المعزى حول الجفن ، يرتدي قميصاً يترك بطنه مكشوفاً... يخبّ على بعد خطواتٍ أمامهم ، يرمي حجراً على عصفور مرَّ... لا يشبه أخي ماريو في شيء ومع ذلك كم تذكّرته!

يبدو أن المرأة هي الأمّ ، سمراء اللون ، مثلهنّ جميعاً ، ولها فرحة تعمّ جسدها حتى ليشعر المرءُ بالسعادة وهو ينظر إليها... كانت مختلفة تماماً عن أمّي ومع ذلك أتساءل لماذا ذكّرتني بها إلى هذا الحدّ ؟...

ستعذرني ، لكنّني لن أستطيع الاستمرار . فأنا قاب قوسين أو أدنى من البكاء... أنت تعلم ، كما أعلم تماماً ، أنّ رجلاً يحترم نفسه يجب ألاّ يسمح بأن يُباغته البكاء مثل أيّة امرأة .

سأستمرّ بحكايتي ، هي حزينة ، أعرف ذلك تماماً ، لكن أكثر حزناً

منها تلك الفلسفات ، التي لم يُخلق لها قلبي ، هذه الآلة التي تُصنَع الدمَ ا
لا بدّ سيسفح بعض الحزن الشديد...

٧

استمرّت علاقتي مع لولا في المسالك التي لن تخفى عليك ومع مرور الزمن وجدت نفسي بعد خمسة أشهر من دفن أخي الميت مُبَاغَتاً ـ ها أنت ترى كيف هي الأمور ـ مباغتاً بالخبر الذي هو أقل ما يجب أن يُباغتني .

كان ذلك يوم القديس كارلوس ، في شهر تشرين الثاني . ذهبتُ إلى بيت لولا ، كما هي العادة كلَّ يومٍ منذ شهور مضت ؛ نهضت أمُّها ، كما هي العادة دائماً وذهبت . وجدتُ خطيبتي شاحبةً قليلاً وغريبة بعض الشيء ، انتبهت بعدها ، يبدو وكأنّها بكت ويضايقها ألم عميق... الحديث ـ الذي لم يكن انسيابياً بيننا قط ـ أُفْلِتَ في ذلك اليوم من صوتنا ، كما تفلت الجداجد من الوطءِ أو كما يهرب الحجل من غناءِ مارٍّ ، كلّ محاولة قمت بها للكلام تتعثّرُ في حنجرتي وتبقى جافّة كجدار...

ـ لا تتكلّمي إذا كنت لا تريدين .

ـ بلى أريد!

ـ إذن تكلَّمي... هل أمنعك ؟

ـ باسكوال ؟

ـ ماذا!

ـ هل تعلم شيئاً ؟

ـ لا .

ـ ألا تتصوّره ؟

ـ لا .

يضحكُني الآن التفكير بأنّني تأخّرتُ كلّ ذلك الوقت للوقوع على...

ـ باسكوال!

ـ ماذا!

ـ أنا حامل!...

في البداية لم أفهم . بقيتُ كأنّني مسحوق ، غريباً تماماً عن هذا المستجد ،لم أفكّر قط أن ما كانوا يقولونه لي ، وكان طبيعياً جداً ، يمكن أن يحدث . لا أدري بماذا كنتُ أفكّر...

سخّن الدمُ أُذنيَّ ، حتى صارتا باحمرار الجمر ، وعيناي أحرقتاني كما لو أنَّ فيهما صابون...

ربّما مضت عشر دقائق على صمت قاتل . قلبي يلاحَظ في صدغيَّ بدقّاته المتقطعة كدقات الساعة ، تأخرت بعض الوقت حتى لاحظت ذلك...

كان تنفس لولا كأنّه يمرّ في ناي .

ـ أنت حامل ؟

ـ بلى!

راحت لولا تبكي . لم يخطر لي ما أواسيها به .

ـ لا تكوني غبية ، ناس يموتون... ، وآخرون يولدون...

ربّما أراد الله أن يُحرّرني من عذاب ما في الجحيم للرقّة التي شعرت بها في ذلك المساء .

ـ وماذا في الأمر من خاص ؟ أمّك أيضاً كانت حاملاً قبل أن تأتي بك... وأميَ أيضاً...

قمتُ بجهود منقطعة النظير كي أقول شيئاً . لاحظتُ تبدلاً في لولا ، بدت وكأنّها قُلِبَت على قفاها .

ـ هذا ما يحدث دائماً ، أنت تعرفين ذلك . ليس هناك ما يدفعك للاستعجال!

كنتُ أنظر إلى بطن لولا ، فلا ألاحظ شيئاً . كانت جميلة بلونها الذي فقدته ولفّة شعرها الشعث .

اقتربتُ منها قبّلتُها على خدّها ، كانت باردة مثل ميتة... تركتني أقبّلها وابتسامة تعلو فمها تشبه ابتسامة شهيد في العصور البائدة...

ـ هل أنت سعيدة ؟

ـ بلى...! سعيدة جدّاً!

... ...

ـ هل تحبّني وأنا هكذا ؟

ـ بلى ، يا لولا... وأنتِ هكذا .

ـ كان صحيحاً . هكذا أحببتها في تلك اللحظة... شابّة وفي بطنها ولد ، أواسي نفسي بوهم أنّني سأربيه وأجعل منه رجلاً ذا فائدة...

ـ سنتـزوّج ، يا لولا ، يجب أن نسـوّي أوراقنا... لا يمكن لهـذا أن يستمرّ هكذا...

ـ لا...

بدا صوت لولا مثل تنهيدة .

ـ وأريدُ أن أُبرهن لأمّكِ أنّني أعرف كيف أفي بعهودي كرجل .

ـ هي تعرف ذلك...

ـ لا ، لا تعرف!

حين قرّرتُ المغادرةَ كان الليل قد أطبق .

ـ نادي أمّك .

ـ أمّي ؟

ـ بلى .

ـ لماذا ؟

ـ لأقول لها ذلك .

ـ هي تعرف .

ـ قد تعرفه... لكنّني أريد أن أقوله لها بنفسي .

انتصبت لولا على قدميها ـ ما أطولها! ـ وخرجت . وحين عبرت عتبة باب المطبخ أحببتها كما لم أحبّها قط...

دخلت أمُّها بعد بُرهةٍ :

ـ ماذا تريد ؟

ـ ها أنت ترين .

ـ ألا ترى ما فعلت بها ؟

ـ فعلتُ خيراً .

ـ خير ؟

ـ بلى . خيرا! أم أنّها ليست في عمر يؤهّلها لذلك ؟

سكتت الأم ، لا أعتقد أنّني رأيتها قط بمثل تلك الوداعة .

ـ أردت أن أكلّمك .

ـ عمّ ؟

ـ عن ابنتك . سأتزوجها...

ـ هذا هو أقل ما يمكن . هل أنت عازم تماماً ؟

ـ بلى ، عازم .

ـ وهل فكّرت بالأمرِ جيّداً ؟

ـ بلى ، جيّداً جداً .

ـ بهذا الوقت القصير ؟

ـ كان عندي فائض منه .

ـ إذن انتظر ، سأناديها .

خرجت العجوزُ ، تأخرت كثيراً حتى عادت ؛ لا بدّ أنهّما تشاجرتا . حين عادت جاءت بلولا من يدها .

ـ انظري ، هل تريدين الزواج . هل تريدينه أنت ؟

ـ بلى...

ـ حسن ، حسن ، باسكوال فتى طيّب ، كنت أعرف ما يجب فعله... هيا ، تبادلا القبل!

ـ تبادلناها .

ـ تبادلا أخرى . هيا ، كي أراكما .

اقتربت من الفتاة ، قبّلتها بكلّ ما أوتيتُ من قوّة وشددتها إلى كتفيّ دون أن أبالي بوجود أمّها... ومع ذلك ، عذراً ، لم يكن لتلك القبلة الأولى من الطعم إلاّ قليله ، وأقل بكثير من طعم تلك القبل الأولى في المقبرة ، التي بدت لي قصيّة جداً .

ـ هل أستطيع البقاء ؟

ـ بلى ، ابقَ .

ـ لا ، يا باسكوال ، لا تبقَ بعد ، لا تبقَ .

ـ بلى ، يا بنيّتي ، ليبقَ . ألن يُصبح زوجك ؟

بقيتُ وقضيتُ الليلَ معها...

في اليوم التالي اقتربتُ صباحاً باكراً من الكنيسة ، دخلتُ غرفة قدس الأقداس . كان السيد مانوِل يحضّرُ نفسه للصلاة ، تلك الصلاة التي قال إنّها للسيّد خِسوس ، لسيّدة البيت وعجوزين أو ثلاث أخريات . حين رآني أصل بدا كأنه قد بوغت .

ـ أنت هنا ؟

ـ ها أنت ترى ، يا سيّد مانوِلْ ، جئت لأتكلّم معك .

ـ هل الحديث طويل ؟

ـ بلى ، يا سيّد .

ـ وهل تستطيع أن تصبر حتى انتهاء الصلاة ؟

ـ نعم ، يا سيّد ، لستُ على عجلة من أمري .

ـ انتظرني إذن .

فتح السيّد مانولِ باب غرفة قدس الأقداس وأشار إلى مقعد في الكنيسة ، مقعد مثل مقاعد كلّ الكنائس ، من خشب غير مدهون ، قاس وبارد مثل الحجر ، لكنه مكان يمكن للمرء أنْ يقضي فيه ، أحياناً ، لحظاتٍ نادرةً وجميلة جداً...

ـ اجلس هناك . حين ترى السيّد خِسوس يركع تركع أنت أيضاً ، وحين ترى السيّد خِسوس يجلس تجلسُ أنت أيضاً...

ـ حاضر ، يا سيّد .

استمرّت الصلاةُ ، مثل كلّ الصلوات ، أكثر قليلاً من نصف ساعة ، لكن تلك النصف ساعة مرّت بلمح البصر...

حين انتهى عدتُ إلى غرفة قدس الأقداس فكان دون مانولِ هناك يخلع ملابسه .

ـ قُلْ .

ـ ها أنت ترى... أريد الزواج .

ـ يبدو لي شيئاً جيّداً ، يا بُني ، لهذه الغاية خلق الله الرجالَ والنساء ، لاستمرار الجنس البشري .

ـ نعم ، يا سيّد .

ـ حسن ، حسن... وممّن ؟ من لولا ؟

ـ نعم ، يا سيّد .

ـ وهل فكّرت بهذا منذ زمن طويل ؟

ـ لا ، يا سيّد ؛ البارحة...

ـ البارحة لا أكثر ؟

ـ لا أكثر . البارحة قالت لي ما هناك ؟

ـ وهل هناك شيء ؟

ـ بلى...

ـ حُبلى ؟

ـ بلى ، يا سيّد ، حُبلى .

ـ إذن ، نعم ، يا بُني ، من الأفضل أن تتزوّجا . وسيغفرُ اللهُ لكما كلّ شيء ، ثمّ إنكما ستلقيان الاحترام في أعين الناس . الطفل خارج الزواج خطيئة وعار . وولد يجيء من والدين تزوّجا زواجاً مسيحياً بركة... أنا أسوّي موضوع الأوراق . هل أنتما ابنا عمومة أو خؤولة ؟

ـ لا ، يا سيّد .

ـ هذا أفضل . عُدْ خلال خمسة عشر يوماً إلى هنا . وسأكون قد جهّزتُ كلّ شيء .

ـ نعم ، يا سيّد .

ـ إلى أين ستذهب الآن ؟

ـ ها أنت ترى... إلى العمل .

ـ أوَلا تريد الاعتراف قبل ذلك ؟

ـ نعم...

اعترفتُ فصرت ناعماً ، سهلاً ، كأنّهم غسّلوني بماء ساخن...

٨

بعد أقل من شهر ، في الثاني عشر من كانون الأوّل ، يومَ عذراء غواديلوب الذي صادف في ذلك العام يومَ أربعاء وبعد أن قمت بكلّ متطلبات القانون الكنسي ، تزوّجنا أنا ولولا .

كنتُ مشغولاً وكأنّني متفكّر ، خائفاً من الخطوة التي سأخطوها ـ ويحك ، الزواج أمر في غاية الجديّة! ـ ، مررتُ بلحظاتِ ضعفٍ وإنهاك ، أؤكّد لك أنّني أوشكت على التراجع وليذهب كلّ شيء إلى الجحيم ، وأنا لم أفعل ذلك إلاّ لأنّني فكرّت أنّ الفضيحة ستكون أعظم ، والواقع أنّها لن ترفع الخوف عنّي ، لذلك فمن الأفضل أن أمكث هادئاً ولتأتِ الأحداث كيفما شاءت ؛ ربّما فكّرت الخرفانُ بالشيء ذاته وهي تُحمل إلى المذبح... من جهتي أستطيع أن أقول إنّني مررتُ بلحظات فكّرت فيها أنّ ما هو على وشك الوقوع سيؤدي بي إلى الجنون . لا أدري ما إذا كانت حاسّة الشمّ هي التي تنبئني بالفاجعة التي تنتظرني... الأسوأ هو أنّ حاسّة الشمّ هذه لم تكن تضمن لي سعادة أكبر في حال بقيتُ عازباً...

وبما أنّني استهلكتُ في العرس القليل الذي وفّرته ـ فالزواج بالإكراه

شيء ومحاولة الحفاظ على ماء الوجه شيء آخر ـ ، وإذا لم يأتِ العرسُ بالنتيجة بهيّاً ، إلاّ أنّه كان سخياً ، ضمن الممكن ، مثل أيّ عرسٍ . كلّفتهم بأن يضعوا بعض أزهار شقائق النعمان وبعض أجفان الحصالبان المزهرة التي كان مظهرها لطيفاً ومريحاً ، ربّما لأنّنا لم نشعر ببرد ألواح خشب صنوبر المقاعد ولا حجارة الأرض . كانت هي ترتدي الأسود ، طقماً من أفضل أنواع الكتّان المحكم ووشاحاً مطرّزاً بكامله ، أهدته إليها العرّابة وفي يدها بعض أغصان الليمون المزهرة ، وهي من الرشاقة والتحكّم بدورها بحيث بدت كأنّها الملكة بعينها ، بينما ارتديتُ أنا طقماً أزرق زاهياً ، مخطّطاً بالأحمر ، ذهبتُ إلى باداخوث (بطليوس) لشرائه وقبّعة سوداء تماماً وساعة جيب . أؤكّد لك أنّنا شكّلنا ثنائياً جميلاً ، بشبابنا وطلعتنا!... آهٍ ، يا لتلك الأيّام التي كنّا ما نزال نملك فيها لحظات يبدو فيها كأنّ المرء يشكّ بالسعادة ، وكم تبدو لي الآن بعيدة!...

كان إشبينانا السيّد سباستيان ، عامل دونْ رايموندو الصيدلاني والسيّدة أوْرورا ، أخت دون مانوِل ، الراهب الذي باركنا وألقى علينا في النهاية عظةً دامت ثلاثة أضعاف الاحتفال ، ولم أتحملها لسببٍ آخر ـ الله يعلم ذلك ـ غير اعتقادي بأنّه واجب ، فقد أضجرني إلى حدّ كبير . حدّثنا مرّة أخرى عن الحفاظ على النوع ، عن البابا ليون الثالث عشر وقال لنا ما لا أدري عن القدّيس بولص والعبيد... للحقيقة أنّ الرجل قد أعدّ خطابه جيّداً!

حين انتهى احتفال الكنيسة ـ وهو ما لم أكن أتصوّر حدوثه ـ ذهبنا جميعاً ، كما لو في لجنةٍ ، إلى بيتي ، حيث حضّرنا ، دون وسائل رفاهية كبيرة ، لكن بأفضل إرادة في العالم ، من الطعام والشراب ما يبشم جميع من ذهبوا بل وضعفهم أيضاً . فلقد أعدوا للنساء شوكولاة مع الزلبياء وحلوى

اللوز وثريد البسكويت وخبز التين ، وللرجال نبيذاً أبيض ومقبلاتٍ من السجق الرفيعة والغليظة والزيتون والسردين المعلّب... أعرف أنّ في القرية من انتقدني قائلاً بأنّني لم أقدّم طعاماً ، الله بيني وبينهم . لكن ما أستطيع أن أؤكّده لك فعلاً هو أنّه لم يكن هناك أصعب عليّ من إرضائهم ، وهو في الحقيقة ما فضّلت عدم تحقيقه ، لأنّه بدا لي رباطاً أقسى من اللازم يربط رغبتي بالذهاب مع زوجتي . ضميري مرتاح لأنّني قمت بواجبي ـ وجيّداً ـ ويكفيني هذا ؛ أ ما بالنسبة للّغوِ ... فمن الأحسن ألاّ نوليه اهتماماً!

ما إن جاءت الفرصة ، بعد أن قمنا بتكريم الضيوف ، حتى أخذتُ زوجتي ، أجلستها على صهوة الفرس التي زيّنتها بمعدات السيد بيثنتِ ، فهو لهذا السبب أعارها لي ، وشرعت خُطَيْة خُطية كأنّني خائف من سقوطها أرضاً ، في الطريق حتى وصلت إلى مِريدا ، حيث كان علينا أن نمضي ثلاثة أيّام ، ربّما هي أسعد ثلاثة أيامٍ في حياتي... في الطريق توقّفنا ، ربما أكثر من خمس مرات ، لنترطّب قليلاً ، أتذكّر الآن باستغراب وأتردّد كثيراً بالتفكير بالنشوة التي انتابتنا لجمع أزهار الأقحوان ، ووضعها على رأس بعضنا بعضاً . يبدو أنّ حديثيّ الزواج تعاودهم فجأة سذاجة الطفولة كلّها...

حين دخلنا بخببٍ موقّع وعادي في المدينة عبر الجسر الروماني ، أخذنا الحظّ السيئ بأن جفلت الفرس ـ من يدري إن كان لمشهد النهر ـ فضربت عجوزاً كانت تمرُّ هناك أفقدتها توازنها وأوشكت أن ترمي بها على رأسها في نهر غواديانا . ترجّلتُ بسرعة لنجدتها ، فليس عمل ابن حلال تجاهلها ، لكن وبما أنّ العجوز ولّدت عندي إحساساً بأنّ الشيء الوحيد الذي تعانيه هو سوء الخلق ، فقد أعطيتها ريالاً ـ كيلا يُقال عنّا شيء ـ وربّتُّ ربتتين على كتفيها وعدت لأجتمع بلولا . كانت هذه تبتسم وآلمتني

ابتسامتها ، صدّقني ، كثيراً ؛ لا أدري ما إذا كان إحساساً... شيئاً يشبه حديث القلب بما كان سيحدث لها . من غير المستحب الضحك لمصائب الآخر ، يقول هذا رجل عانى المصائبَ على امتداد حياته ؛ فالله يُعاقب دون عصى ولا حجارة ، ومعروف أنّ من بالحديد يَقْتلُ... ومن جهة أخرى ، وإن لم يكن لهذا السبب ، فليس ترفاً أن يكون المرء إنسانياً .

نزلنا في نزل بوسادا دِل ميرلو ، في غرفة كبيرةٍ يجب الدخول إليها من جهة اليمين ، وبما أنّنا كنّا نذوب ولهاً لم نطأ أرض الشارع مرّة واحدة خلال اليومين الأوّلين ، كنّا مرتاحين في الغرفة ، فهي واسعة ، سقفها عالٍ يقوم على دعائم من خشب الكستناء ، أرضها المبلطة ، نظيفة ، أثاثها الوفير مريح ، ممتعٌ استخدامه . رافقتني ذكرى تلك الغرفة على امتداد حياتي كصديق وفي ؛ كان السرير من أكثر الأسرّة التي استطعت رؤيتها فخامة في حياتي كلّها ، برأسيته المصنوعة كلها من خشب الجوز المشغول ، بفرشه الأربعة المصنوعة من الصوف المغسول... كم كان مريحاً!... كأنّه سرير الملك بعينه!... وكان هناك أيضاً كومودينا عالية ومنتفخة ، أدراجها الأربعة العميقة ذات الأكرِ الذهبية ، وخزانة تصل حتى السقف فيها مرآة كبيرة من أفضل الأنواع ، وشمعدانان ـ من ذات الخشب ـ واحد في كلّ جانب ليضيء الصورة جيّداً... حتى حوض الاغتسال ـ الذي هو دائماً الأسوأ ـ كان بهياً في تلك الغرفة ، فقوائمه خفيفة ومنحنية من خشب الخيزران ، والطست الخزفي النفيس بعصافيره المرسومة على حوافه تضفي عليه ملاحة تجعله ظريفاً... على الجدران صورة كبيرة مطبوعة بأربعة ألوان فوق السرير تمثل المسيح في التعذيب ، دُفّ رسمت عليه بالألوان مأذنة إشبيلية ، مع شجرة قطلب حمراء وصفراء وشجرتي كستناء على كلا الجانبين ولوحة للسيرك الروماني الذي ظننته دائماً ذا قيمة عالية نظراً للشبه الكبير الذي وجدته فيه مع الحقيقي .

كما كان يوجد فوق الكومدينا ساعة ذات ميناء صغير يمثل كرة العالم ، يحملها رجلٌ عارٍ فوق كتفيه وإبريقين من تالابيرا (طلبيرة) مرسومين باللون الأزرق ، وكانا قديمين قليلاً لكنّهما يحتفظان ببريقٍ يضفي عليهما البهجة . كانت الكراسي ستّة ، اثنان منهما بذراعين ، وكانت عالية الظهر ، وثيرة القماش ، مكان المؤخرة فيها أحمر (عذراً) ، قويّة القوائم ، مريحة إلى حدّ أنّني اشتقت إليها كثيراً حين عودتي إلى البيت ، فكيف الآن وأنا محبوس هنا . ما زلتُ أتذكّرها على الرغم من كلّ السنين الماضية!

كنّا ، أنا وزوجتي ، نقضي الساعات متمتّعين بالراحة المُتاحة إلينا ، حتى أنّنا لم نكن ، وكما سبق وقلت لك ، لنخرج إلى الشارع مطلقاً . ماذا كان يهمّنا ما يجري فيه إذا كنّا نملك هناك في الداخل ما لم تكن بقيّة المدينة كلّها لتستطيع تقديمه إلينا ؟

الفاجعة شيء سيئ ، صدّقني . فسعادة اليومين المذكورين وصلت حدّ أنّها جعلتني أستغرب كم كانت تبدو تامّة...

في اليوم الثالث ، السبت ، يبدو أنّ أقرباء المُصابة دلوا علينا ، وجدنا نفسنا فجأة في ورطة . لفيف من الصبية تزاحموا على الباب بعد أن عرفوا أنّ الحرس المدني يحوم هناك فأخذ بنا من الصخب ما بقي في سمعنا شهراً كاملاً . أيّة قسوة خبيثة توقظ رائحة المساجين في الأطفال . ينظرون إلينا كحشرتين غريبتين ، كما ينظرون إلى نعجة تُذبح في المذبح ، نعجة يبلّلون أحذيتهم بدمها ـ أو كما ينظرون إلى الكلب الذي تركته العربةُ محطّماً ـ الكلب الذي يلمسونه بعصيهم ليروا ما إذا كان ما يزال حيّاً ـ ، أو إلى القطط الخمس الصغيرة حديثة الولادة التي يرمونها بالحجارة ، ويخرجونها بين حينٍ وآخر ليلعبوا بها ، ليطيلوا عمرها قليلاً ـ ما أسوأ حبّهم لها! ـ ،

كيلا تتحرّر من العذاب بسرعة... ضايقني في البداية وصولُ الحرس المدني ، ومع أنّني جهدت كي أتظاهر بالرصانة ، فخوفي من أن لا يسمح اضطرابي بالبرهان على ذلك كان كبيراً . جاء مع الحرس المدني فتى في الخامسة والعشرين من عمره تقريباً ، هو حفيد العجوز ، كان رشيقاً ومختالاً كما هي حال من في مثل هذه السن ، شكّل هذا خلاصي ، ذلك وبما أنّه لا يوجد ما هو أفضل من استخدام الكلمة ورنينِ النقود في الجيب للتعامل مع الرجال ، كما تعرف ، فقد ناديته بالوسيم ووضعتُ في يده ما إن اقترب منّي ، ستّة بيزيتات فطار بأسرعِ من الصاعقة وأسعد من صنجتين وهو يطلب من الله ـ أنا واثق من ذلك ـ أن يرى جدته مراتٍ كثيرةً في حياته بين قوائم الجياد . أمّا رجال الحرس المدني فقد أصلحوا من شواربهم ، من يدري ما إذا كان بفعل تعقّل الجهة المهانة السريع ، وكلّموني عن خطر السرعة ، لكن الأساس هو أنّهم انسحبوا دون المزيد من ازعاجي .

كانت لولا منهكة من الخوف الذي سبّبته لها الزيارة ، لكن وبما أنّها لم تكن في الحقيقة امرأة جبانة ، وإن كانت متخوّفة ، فقد خرجت من كدرها ما إن مرّت اللحظات الأولى وعاد اللونُ إلى خدّيها والبريقُ إلى عينيها والبسمةُ إلى شفتيها وعادت هي على الفور إلى ما كانت عليه دائماً من جمالٍ وحضور .

في تلك اللحظة ـ أتذكّرُ جيّداً ـ كان أن لاحظتُ جيّداً شيئاً غريباً في بطنها وكرباً دخل قلبي لرؤيتها هكذا ـ وسط الضيق ذاته ـ جاء ليريح ضميري ، الذي كان مشغولاً آنذاك لعدم شعوري بها تخفق أمام فكرة الولد الأوّل . ما يُلحَظُ عليها كان قليلا جداً ، ومن الممكن جداً ألاّ يلفت انتباهي لو لم أُعلم به...

اشـتـرينا بعض الـتـرهات من مِـريدا للبـيت ، لـكن وبمـا أنّ المـال الذي بحوزتنا كان قليلاً ونقص كثيراً بالبيزيتات الستة التي أعطيتها لحفيد العجوز المُصـابة ، فقـد قرّرتُ العودة إلى القـرية ، لأنّه لم يبـدُ لي من عمـل الرجال الحكماء استنفاد ما في محفظة النقود حتى آخر مليم . عدتُ لأسرجَ الفرس وأزيّنها فوق عدتها ولجام سوق سان بيثِنتِ وألفَّ الدثارَ على القربوس لأعود بها - وزوجتي على كفلها كما في الذهاب - إلى تورِّمِخيّا . وبما أنّ بيتي كان ، كما تعرف ، على طريق ألمِنْدرالِخو ، ونحن قادمان من مِريدا ، كان علينا أن نعبر للوصول إليه كلّ خطِّ البيوت وبالتالي استطاع أن يرانا جميع الجيران نصلُ - بماريشاليّة - ، لأنّ الوقت كان غروباً ، ويظهروا لنا ودّهم ، الذي كان قائماً آنذاك ، من خلال الاستقبال الحسن الذي حظينا به . ترجّلتُ متدحرجاً على رأسي كيلا أجرح لولا بقدمي ، فقد كنتُ مطلوباً من رفاق العزوبية والعمل ، ذهبتُ معهم ، أكاد أطير ، إلى حانة مارينِتِ الغايليو ، حيث دخلنا دفعاً ونحن نغنّي ، ضمّني صاحب المحل شاداً إياي إلى كرشه ، فكدتُ أدوخ من قوّته ورائحة النبيذ الأبيض التي تفوح منه . قبّلت لولا وأرسلتها إلى البيت لتسلّم على صديقاتها وتنتظرني ، فذهبت ، فارسةً على فرس جميل ، رشيقة ، فخورة مثل أميرة ، لا تفكّر أبداً - كما هي دائماً - بأنّ الحيوان سيكون سبب كربنا الأوّل .

كنّا جميعاً في الحانة ونظراً لوجود قيثارة وكثير من النبيذ وما يكفي من المزاج الحسن ، كأننا نشعُّ بهجة ، غارقين في ما يعنينا ، غريبين جداً عن العالم ، ومضى الوقت بين غناء وشرابٍ دون أن نشعر به تقريباً . انطلق ثاكاريّاس ، عاملُ السيد خوليان ، يغنّي سِغيديّلياس . كان سماعه بصوته الناعم - الذي لحسون - يُطرب! يُغنيَ فنصمت نحن البقيّة - طيلة حالة الصحو

ـ لنصغي إليه مذهولين ، لكن ما إن حرّرنا النبيذ والحوار قليلاً حتى رحنا نغني جماعةً ؛ وعلى الرغم من أنّ أصواتنا لم تكن موزونة جيّداً ، ووصل بنا الأمر إلى قول أشياء ظريفة ، فقد كان كلّ شيء مغفوراً لنا .

من المحزن أنّ أفراحنا نحن البشر لا نعرف أبداً إلى أين تمضي بنا ، فلو عرفنا لكنّا وفّرنا دون شكّ هذا الانزعاج أو ذاك ؛ أقول ذلك لأنّ السهرة الصاخبة في بيت الغاليو انتهت كصلاة الصبح وما من أحدٍ منّا عرف كيف يتوقّف في الوقت المناسب . كان الأمر بسيطاً ، بسيطاً مثل كلّ الأشياء التي تأتي لتعقّد حياتنا .

يقولون إنّ السمك يموت من فمه ، ويقولون أيضاً إنّ من يتكلّم كثيراً يُخطئ كثيراً والفم المطبق لا يدخله ذباب . وصدقاً يجب أن يكون هناك شيء من الصحّة بالنسبة إليّ في كلّ هذا . إذ لو خرس ثاكاريّاس ، كما يأمر الله ، ولم يحشر نفسه فيما لا يعنيه لوفّر على نفسه انزعاجه واضطراره لأن يبرّر الآن للجيران ندوبه الثلاث . النبيذ ليس نصوحاً جيّداً...

حكى لنا ثاكاريّاس وسط الصخب المخمور ، متظارفاً ، لا أدري عن أيّ حدث أو نزوة حمائمي لصّ ، كنت أستطيع التجرّؤ على القسم في اللحظة ذاتها ـ وأستمر الآن بالقسم ـ أنّه قصدني بكلامه ؛ لم أكن قط حساساً ، هذا صحيح ، لكن هناك أشياء من المباشرة ـ أو هكذا نظنّها ـ لا تسمح للمرء بأنّ يغضّ الطرف أو يحافظَ على رصانته فلا ينطّ .

نبّهته .

ـ لا أرى ظرافة في ذلك!

ـ لكن الجميع رأوها ، يا باسكوال .

ـ لا بدّ أنّه كـذلك ، لا أنكر ، لكن مـا أقـوله هو أنّه لا يبـدو لي إضحـاكُ الأغلبية بإقحام الأقلية عملَ ابن حلال .

ـ لا تنزعج ، يا باسكوال ، فأنت تعرف أنّ من به شوكة...

ـ كما لا يبدو لي الخروجُ بنكاتٍ بذيئة من عمل الرجال .

ـ لا تعنيني بهذا...

ـ لا ، بل أعني الحاكم .

ـ تبدو لي صغيراً على كلّ هذا التهديد الذي تُطلقه .

ـ لكنّني أنفّذه .

ـ تنفّذه ؟

ـ نعم!

نهضتُ

ـ هل تريدينا أن نخرج إلى العراء ؟

ـ لا حاجة لذلك!

ـ تشعر بنفسك شجاعاً جداً!

تنحّى الأصدقاء جانباً ، فليس من عمل الرجال التدخل لمنع ضرب الخناجر...

فتحت مديتي برصانة ؛ فأيّ تهوّر في هذه اللحظات ، أيّ خطأٍ يمكن أن يجلب لنا أسوأ النتائج . كان من الممكن سماع تحويم الذبابة ، إلى هذا الحدّ كان الصمت...

نهضتُ ، ذهبت باتجاهه ، وناولته ، قبل أن أسمح له بالاستعداد ،

ثلاثَ ضربات تركته كأنّه يرتعد . وحين حملوه في طريقهم إلى صيدلية دون رايموندو كان الدم ينبثق منه مثل فوّارة...

٩

مضيتُ إلى البيت يرافقني ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء الحميمين ، منهكاً قليلاً مما حدث تواً .

ـ أيضاً كان حظاً سيئاً... بعد ثلاثة أيامٍ من زواجي .

كنا نمضي صامتين خافضي الرأس ، كأنّنا مغمومون .

ـ هو من جنى على نفسه ، ضميري مرتاح تماماً . لو لم يتكلّم!...

ـ لا تلفت ، يا باسكوال!

ـ يا رجل ، أنا آسف ، ها أنت ترى! بعد أن مضى كلّ شيء!

كان الفجر والديكة الصائحة تطلق في الجوّ نداءاتها ، والحقل يفوحُ بعبقِ اللاذن والزعتر .

ـ أين أصبته ؟

ـ في إحدى كتفيه .

ـ كثيراً ؟

ـ ثلاث .

ـ هل سيخرج منها ؟

ـ يا رجل ، طبعاً! أعتقد أنه سيخرج .

ـ هذا أفضل .

لم يبدُ لي بيتي بعيداً قط بالشكل الذي بدا لي في تلك الليلة...

ـ الطقس بارد...

ـ لا أدري ، أنا لست بردانَ .

ـ تراه الجسد ؟

ـ ممكن...

كنّا مارين بالمقبرة .

ـ لا بدّ أنّ الوضع في الداخل سيئ!

ـ يا رجل! لماذا تقول هذا ؟ ما أغرب الأفكار التي تخطر لك!

ـ هاأنت ترى!

بدت شجرة السرو شبحاً ، طويلاً وجافّاً ، حارسَ موتى...

ـ بشعة شجرة السرو هذه...

ـ بشعة .

على شجرة السرو بومة ، طائر سيئ الطالع ، أطلق زعيقه الغامض .

ـ طائر نحسٍ هذا .

ـ نحس...

ـ وهو هناك كلّ ليلة .

ـ كلّ ليلة...

ـ يبدو كأنّه يحبُّ مرافقة الموتى .

ـ يبدو...

ـ ما بك ؟

ـ لا شيء! لا شيء بي! هاأنت ترى ، نزوات...

نظرت إلى دومينغو ، كان شاحباً مثل مُحْتَضَر .

ـ هل أنت مريض ؟

ـ لا...

ـ هل أنت خائف ؟

ـ أنا خائف ؟ ممّن سأخاف ؟

ـ ما من أحدٍ ، يا رجل . مجرّد كلام .

تدخّل السيّد سِباستيان :

ـ هيا ، اسكتا ، لنرَ ما إذا كنتما ستفعلانها أنتما .

ـ لا...

ـ هل بقي الكثير ، يا باسكوال ؟

ـ بل القليل ، لماذا ؟

ـ لا لشيء... بدا كأنهم أخذوا البيت بيدٍ ومضوا يبتعدون به ويزدادون بعداً في كلٍّ مرّة .

ـ هل سندخل ؟

ـ يا رجل ، طبعاً لا! لا بدّ أن ضوءاً اشتعل .

عدنا ولزمنا الصمت . يجب ألاّ يكون قد تبقى إلا القليل...

ـ هل هو ذاك ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا لم تقل لنا ؟

ـ لماذا ؟ ألم تكن تعرف ؟

استغربتُ الصمت المخيم على بيتي . فالنساء لا بدّ أنّهن ما ، كما هي العادة . أنت تعرف كم ترفع النساءُ أصواتهن في الكلام .

ـ يبدين نائمات .

ـ لا أظنّ! يوجد هناك ضوء!

اقتربنا من البيت ، بالفعل كان هناك ضوء .

كانت السيّدة إنغراثيا في الباب ، تتكلّم مُستَأسنةً مثل البوم كان لها وجهها .

ـ وأنتِ هنا ؟

ـ هاأنت ترى ، يا بني ، كنتُ بانتظارك .

ـ بانتظاري ؟

ـ بلى .

لم يكن باستطاعة الغموض الذي كانت تستخدمه السيّدة إنغر أن يسرّني .

ـ دعيني أدخل .

ـ لا تدخل!

ـ لماذا ؟

ـ لأنّه عليك ألاّ تدخل!

ـ هذا بيتي!

ـ أعرف ، يا بُني ، وآمل أن يكون لسنوات طويلة... لكنك لا تستطيع الدخول!

ـ لكن لماذا لا أستطيع الدخول ؟

ـ لأنّه لا يمكن ، يا بني . زوجتك مريضة!

ـ مريضة ؟

ـ بلى .

ـ ما بها ؟

ـ لا شيء . أجهضت .

ـ بلى لقد رمتها الفرس...

لم يسمح لي الحنقُ الذي اعتَمَلَ في داخلي بأن أرى بوضوح ، كنت من عمى القلب بحيث لم أنتبه لما كنتُ أسمع...

ـ أين الفرس ؟

ـ في الإسطبل .

كان بابُ الإسطبل المطل على الحوش منخفضاً... انحنيت حتى دخلت ، لا شيء يُرى...

هيّه ، يا فرس!

التصقت الفرس بالمعلف ، فتحتُ السكينَ بحذرٍ ، كان باستطاعة أيّ خطأ في وضع القدم في تلك اللحظة أن يأتي بعواقب وخيمة...

ـ هيه ، يا فرس!

عاد ديك الصباح ليصيح...

ـ هيه ، يا فرس!

كانت الفرس تتحرّك باتجاه الزاوية . اقتربتُ ، حتى استطعت أن أربِّتَ على رقبتها... كان الحيوان مستيقظاً ، كأنّه قلق...

ـ هيه ، يا فرس!

لم يحتج الأمر غير لحظة واحدة ، اندفعت فوقها وطعنتها ، طعنتُها عشرين طعنة على الأقل...

كان جلدها قاسياً ، أقسى من جلد ثاكاريّاس... حين خرجتُ من هناك سحبتُ ذراعي الموجوعة ، وَصَلَ الدم إلى مرفقها... لم تنبس المسكينةُ بشهقة واحدة ، اقتصرت على التنفس بعمق وسرعة أكبر ، تماماً كما كانت تفعل حين كانوا يطلقون عليها الذكر .

١٠

أقول لك بثقة ـ حتى ولو فكّرت بعد أن بردت أعصابي عكس ذلك ـ إنّه لم تخطر بذهني في تلك اللحظة فكرة أخرى غير أنّ إجهاض لولا من الممكن أن يقع وهي عازبة . كم كان من الممكن أن أوفّر على نفسي من الصفراء والغمّ والسمّ!

بقيتُ على أثر ذلك الحادث المفجع خامدَ الهمّة ، غائصاً في خيالات سوداء احتاجت ردّة فعلي ليس أقل من اثني عشر شهراً كي ، كنت أمضي في القرية كأنّني بلا روح . بعد عام أو أقلّ قليلاً من ضياع ما يجب أن يأتي ، حملت لولا من جديد واستطعت أن أرى بفرح القلق وذاتَ الرغباتِ التي هاجمتني في المرة الأولى : فالوقت يمضي ببطء مفرط ومزاج شيطاني يرافقني أينما حللتُ أو ذهبت مثل ظليّ ، بينما أرغب في أن يمضي بسرعة .

أصبحت فظّاً ونفوراً ، متوجّساً ومتجهّماً ، وبما أنّ زوجتي وأمي لم تكونا تعرفان كثيراً عن المزاج فقد كنّا جميعاً في حال من الاضطراب متواصل ، ننتظر لنرى أين ستنفجر المشاجرة . كان توتّراً يمزّقنا ، لكن

كما لو أنّنا نمارسه بالإكراه ، فكل شيء يبدو لنا تلميحاً ، سيّئَ النية ، كلّ شيء مكراً... كانت شهور من الضيق لا تستطيعُ حتى تصوّرها!

كانت فكرة أنّ من الممكن لزوجتي أن تجهض من جديد شيئاً يخرجني من عقلي ؛ يراني أصدقائي غريبَ الأطوار ولاتشيسبا - التي كانت ما تزال حيّة - كأنّها تنظر إليّ بحنانٍ أقل .

كنتُ أكلّمها ، كما هي العادة دائماً...

- ما بك ؟

وتنظر إليّ كأنها تتوسّلين ، تحرك ذيلها بسرعة كبيرة ، كأنّها تئنُّ وتغرز فيَّ عينين تُمزّقان القلب . هي أيضاً اختنق أولادها في بطنها... في براءتها ، من يدري ما إذا كانت تعرف الألم الشديد الذي سبّبته لي فجيعتها! ثلاثة الجراء التي لم يكتب لها أن تُولَد . ثلاثة جراء متماثلة ، متلاصقة مثل العسل الأسود ، ثلاثة رمادية ، شبه جرباء مثل الجرذان...حفرت لها حفرة بين الخزامى ووضعتها فيها . وحين كنّا نخرج إلى الجبل لصيد الأرنب ونتوقّف لنأخذ نفساً ، تقتربُ من الحفرة لتشمَ رائحتها بحزنِ أنثى فقدت أولادها .

على أبواب الشهر الثامن وحين راحت الأمورُ تمضي على أحسن وجه وحَمْلُ زوجتي يسير ، بفضل نصائح السيّدة إنغراثيا ، باتجاه أن يصبح نموذجَ الحمل ، وبينما كلّ شيء يفترض أنّ من الحكمةِ استبعادَ الحذر ، نظراً للزمن الطويل الذي انقضى والقليل الذي تبقّى ، كانت تداخلني رغبة وسرعة لا شكّ جعلتني واثقاً مذّاك أنّني لن أرتكب حماقة في حياتي إذا خرجت من ذلك المأزق سليمَ العقل .

جاء ابني الجديد إلى العالم في الأيام التي حدّدتها السيّدة إنغراثيا ، أو بالأحرى ابني الأوّل ، كانت لولا بدقّة الساعة . أسميناه في حوض التعميد باسكوال ، مثل خادمكم ، والده .وَدَدْتُ أن أسميه إدوارْدو ، لأنّه وُلِد يوم هذا القدّيس ولأنّها عادة أهل المنطقة ، لكنّ زوجتي ، المحبّة لي في تلك الفترة كما لم تكن قط ، أصرّت على أن تطلق عليه الاسم الذي أحملهُ ، الأمر الذي لم تستغرق لأجله وقتاً طويلاً نظراً للفرحة التي سببها لي . يبدو كذباً ، لكنّني أؤكّد لك صحّته ، أنّ فرحتي بالمحبّة الزائدة التي أحاطتني بها زوجتي كانت مثل فرحة صبيٍّ بحذائه الجديد ، أقسم لك أنّني أشكرها عليها من كلّ قلبي .

عادت بعد يومين من ولادتها ، نظراً لطبيعتها القويّة والصارمة ، وكأنّ شيئاً لم يحدث . الانطباع الذي ولّدته عندي بشعرها الشعث وإرضاعها لابنها من أكثر ما أذهلني في حياتي . ذلك وحده عوّضني كثيراً عن كلّ اللحظات السيئة التي مررت بها...

كنتُ أقضي ساعاتٍ بطولها عند قدمي السرير . ولولا تقول لي بصوتٍ خافتٍ جداً وكأنّها خجلة :

ـ ها قد منحتك واحداً...

ـ بلى .

ـ وجميلاً جداً...

ـ الحمدُ لله .

ـ الآن يجب أن ننتبه إليه...

ـ نعم الآن هي لحظة الانتباه إليه .

ـ من الخنازير .

كانت ذكرى أخي المسكين ماريو تهاجمني ؛ لو كان لي ابن مثل أخي ماريو لخنقته لأريحه من العذاب...

ـ بلى من الخنازير .

ـ والحمّى أيضاً .

ـ بلى .

ـ وضربة الشمس...

ـ بلى ، ومن ضربة الشمس أيضاً .

كان التفكير بأنّ تلك القطعة الطرية من اللحم ، الذي هو ابني ، معرّضة لكلّ تلك الأخطار يقشعر له بدني .

ـ سنُلقِّحه .

ـ حين يكبر قليلاً...

ـ وسنجعله ينتعل حذاءه دائماً ، كيلا تُجْرَحَ قدماه .

ـ وحين يصبح في السابعة من عمره سنرسله إلى المدرسة .

ـ وسأُعَلِّمهُ الصيدَ...

كانت لولا تضحكُ . كانت سعيدةً! أنا أيضاً كنتُ أشعر بنفسي سعيداً . لماذا لا أقولها ؟ وأنا أراها جميلة مثل مريم العذراء ، كما لا يمكن أن يوجد مثلها وطفلها في ذراعيها .

ـ سنجعل منه رجلاً نافعاً!...

كم كنّا بعيدينِ عن التفكير بأنَّ الله ـ الذي يتدبّر كلّ شيءٍ لحسن

مسيرة الكون ـ سينتزعه منّا! كان علينا أن نفقدَ أملنا ، كلّ خيرنا وثروتنا ، التي تتمثل بابننا ، حتى قبل أن نجرِّب إرشاده . إنّها أسرار العواطف ، التي تفلت منّا في أشدّ لحظات حاجتنا إليها!

كانت متعةُ تأمُّلِ الصغير تثير ريبتي ، دون أن أعرف سبباً يبرر ذلك . دائماً تمتّعت بعين صائبة بالنسبة للفواجع ـ لا أدري ما إذا كان هذا لخيري أم لشري ـ وجاء ذلك الإحساس ، ككلِّ الأحاسيس الأخرى ، ليتأكّد مع دوران عجلة الشهور ، كما لو كي يستمر دوران شقائي ، هذا الشقاء الذي بدا أنّه لن يتوقّف قط عن الدوران .

بقيت زوجتي تحدّثني عن الولد .

ـ إنّه ينمو بشكل جيّد... يبدو مثل اسطوانة زبدة...

وراح كلامها وكلامها المتواصل عن الطفل يجعلني أكرهها شيئاً فشيئاً ، كان سيغادرنا ، سيتركنا غائصين في أبشع قنوط ، سيُخْلينا مثل تلك الضياع الخربة التي يتمكّن منها العليق البرّي والقرّاص ، الضفادع والضبان وكنت عارفاً ، واثقاً ، أتوجّس شؤمها ، يقيناً أنها كانت ستحدث عاجلاً أم آجلاً ، وكان يقينُ أنّني لا أستطيع الاعتراض على ما ينبئني به حدسي ، يوتّر أعصابي ويحطّمها .

كنتُ أبقى أحياناً أتأمل باسكواليَ الصغير مثل بريء ، وما هي إلا لحظات حتى تمتلئ عيناي بالدموع ، أكلّمه :

ـ يا سكوال ، بُنَيَّ...

فينظر إليّ بعينيه المكوّرتين ويبتسم...

كانت زوجتي تعودُ وتتدخّل :

ـ يا باسكوال ، الطفل ينمو جيّداً بين أيدينا .

ـ جيّداً ، يا لولا... ليته يستمر هكذا!

ـ ولماذا تقول هذا ؟

ـ هاأنت ترين . فالأطفال في غاية الرقّة!...

ـ يا رجل ، لا تسئ التفكير!

ـ لا ، لا أسيء التفكير ، لا أسيء التفكير... علينا أن نكون حذرين جداً!

ـ جداً .

ـ نتجنّب أن يصاب بالزكام .

ـ نعم... فقد يكون فيه موتنا!

ـ الأطفال يموتون بالزكام...

ـ بمرض ما!...

كان الحوار يموت رويداً رويداً مثل العصافير أو الأزهار ، مثل الرقّة ذاتها والبطء الذي يموت به الأطفال رويداً رويداً ، الأطفال الذين يأخذهم هواء أصفر خائن...

ـ أشعرُ يا باسكوال كما لو كنتُ مذعورة .

ـ مِمَّ ؟

ـ تصوّر أن يضيع منّا!...

ـ يا امرأة!

ـ الأطفال في هذا العمر في غاية الرقّة!...

ـ ابننا جميل جداً بلحمه الورديّ وضحكته التي تعلو فمه دائماً .

ـ هذا صحيح ، يا باسكوال . أنا غبيّة! ـ وكانت تضحك بعصبية كبيرة وهي تعانق الطفلَ وتضمّه إلى صدرها .

ـ اسمع!

ـ ماذا ؟

ـ مِمَّ مات ابن كارمن ؟

ـ وأنت ماذا يهمّك ؟

ـ يا رجل ، كي أعرف...

ـ يقولون إنّه مات بخُنَاق الدجاج .

ـ من هواء أصفر ؟

ـ يبدو .

ـ مسكينة كارمن ، هي التي كانت تمضي سعيدة بطفلها! بوجه والده الرائع ـ كانت تقول ـ هل تذكر ؟

ـ بلى أذكر... بعكس الأمل الذي تأمله الواحدة ، يبدو كما لو أنّ هناك استعجالاً على حملنا على فقدانه...

ـ بلى .

ـ من الواجب أن نعرف كم يدوم كلّ ولد ، أن يكون مكتوباً على جباههم...

ـ اسكتي!

ـ لماذا ؟

ـ لا أستطيع سماعك!

ما كان باستطاعة ضربة فأس أن تحطّم قلبي في تلك اللحظة كما حطّمته كلمات لولا .

ـ هل سمعت ؟

ـ ماذا ؟

ـ النافذة ؟

ـ النافذة ؟

ـ بلى ، تصرّ كأنّ هواءً ما يريد أن يخترقها...

صرير النافذة ، التي يهزها الهواء ، راح يبدو أنيناً .

ـ هل الطفل نائم ؟

ـ بلى .

ـ يبدو كأنّه يحلم .

ـ لا أسمعه .

ـ ويئنّ كما لو أنّ مرضاً أصابه .

ـ هلوسات!

ـ سمع اللهُ كلامك! أقتلع عينيّ .

كان أنين الطفل في غرفة النوم يشبه أنين أشجار البلوط التي تعصف بها الريح .

ـ إنّه يتوجّع .

ذهبت لولا لترى ما به ، بقيتُ في المطبخ أدخّن سيجارةً ، سيجارةً تُباغِتُني لحظاتُ اللهفة وأنا أدخنها دائماً .

... ... لم يدم إلا أياماً قليلة . حين أعدناه إلى الأرض ، كان عمره أحد عشر شهراً ، أحد عشر شهراً من الحياة والرعاية قذف بها هواء أصفر ما خائن ورمى بها أرضاً...

١١

من يدري ما إذا كان الله عاقبني على كثرة ما ارتكبتُ وما كنتُ سأرتكب من آثام! من يدري ما إذا كان مكتوب في اللوح المحفوظ أنّ الفجيعة هي طريقي الوحيد ، الصراط الذي ستجري فيه أيامي البائسة!...

لا يمكن اعتياد الفاجعة ، صدّقني ، لأنّنا نتوهّم دائماً أنّ الفاجعة التي نتجاوزها ستكون الأخيرة ، حتى ولو بدأنا نقتنعُ مع مرور الزمن ـ وبكم من الحزن! ـ أنّ الأسوأ لم يأتِ بعد... تخطر لي هذه الأفكار لأنّني ظننتُ حين أجهضت لولا وطعنتُ تاكارياس أنّني أضنيتُ حزناً ، لا لشيء ـ صدّقني! ـ إلاّ لأنّه لم يخطر ببالي ما كنتُ سأنتهي إليه .

اضطُرّت ثلاث نسوة للإحاطة بي حين غادَرْنا باسكوال الصغير ، ثلاث نساء تربطني بهنّ رابطة ما ، وإن وجدتُ نفسي أحياناً غريباً عنهنّ غرابة أوّل مجهول يمرّ بي ، ومنفصلاً عنهنّ مثل بقية العالم ، وما من واحدة من هذه النسوة الثلاث ، صدّقني ، ما من واحدةٍ منهنّ استطاعت بحبّها ولباقتها أن تجعل حزني على موت ولدي محتملاً ؛ على العكس بدا كأنّهنّ اتفقن على أن يُنغِّصن عيشي... هؤلاء النسوة هنّ زوجتي وأمّي وأختي .

من كان سيخطر له ذلك وقد علّقتُ من الآمال على مرافقتهنّ لي الكثير!

النساء غربان قيظٍ بجحودهنّ وخبثهنّ...

دائماً كُنّ يقُلنَ :

ـ الملاك الصغير الذي أخذه هواء أصفر!...

ـ إلى اليمبوس ليخلّصه منّا!

ـ المخلوق الذي كان الشمسَ بعينها!

ـ والاحتضار!...

ـ كان عليّ أن أحمله مختنقاً بين ذراعيّ .

بدت الحياة سلسلةً من ابتهالاتٍ خانقة وبطيئة مثل ليالي الخمر ، متمهّلة ومضجرة مثل مشية الحمير .

هكذا يوم وآخر ، أسبوع وآخر... كان شيئاً فظيعاً ، عقاباً من السماء وبالتأكيد لعنة من الله!...

وأنا أتمالك نفسي .

ـ إنّه الحبّ ـ كنتُ أفكّر ـ يجعلهنّ قاسيات دون إرادة منهنّ .

كنتُ أُحاول ألاّ أصغي إليهنّ ، ألاّ أوليهنّ انتباهاً ، أن أراهنّ يشرْنَ بأيديهن دون أن أُوليهنّ من الانتباه أكثر مّما لو كنّ دمىً ، أحاول ألاّ أتوقّف عند كلامهنّ... وتركتُ الحزن يموت مع الأيام ، مثل أزهارٍ مقطوفة ، ملتزماً بصمتي ، كما لو أنه جوهرة ، محاولاً أن أخفّف المعاناة إلى أدنى قدر ممكن . أوهامٌ فارغة لم تكن لتفيدني في شيء غير استغراب سعادة من يولدون للدرب السهل في كلّ يومٍ أكثر وكيف أنّ الله يسمح أن يتجسدوا في خيالي!

كنتُ أخافُ غيابَ الشمس كما أخاف النارَ أو الكَلْبَ ؛ أكثر ما كان يؤلمني من عمل اليوم كلّه هو إشعال قنديل المطبخ في حوالى الساعة السابعة مساءً . كلّ الظلال كانت تُذكِّرني بابني الميت ، كل حركات اللهب صعوداً وهبوطاً ، كلّ جلبة في الليل ، جلبة الليل تلك التي تكاد لا تُسمع ، لكنّها تُدوّي في آذاننا مثل طرق الحديد على السندان...

هناك كانت النسوة الثلاث ، ملفعات بالحداد مثل الغربان ، صامتاتٍ كالموتى ، فظّاتٍ ، متجهماتٍ مثل درك مكافحة التهريب . وكنتُ أحاول أحياناً أن أكلّمهنّ لأكسر الجليد .

ـ الزمن قاسٍ .

ـ نعم...

ونعود جميعاً إلى الصمت .

فأصرُّ .

ـ يبدو أنّ السيد غريغوريو ما عاد يريدُ بيع البغل... إنّه بحاجة إليه لشيءٍ ما!

ـ نعم...

ـ هل ذهبتنّ إلى النهر ؟

ـ لا...

ـ وإلى المقبرة ؟

ـ أيضاً لا...

لم يكن هناك من طريقة لإخراجهنّ من هناك . الصبر الذي استخدمته

معهنّ لم أستخدمه قط ، ولن أعود لاستخدامه مع أحدٍ أبداً . كنتُ أتظاهر بأنّني لا أنتبه إلى غرابة أطوارهنّ ، كيلا أستعجل الفضيحة التي كانت لا بدّ قادمة ، مشؤومة كالأمراض والحرائق ، كالسحر وكالموت ، لأنّه لم يكن بمقدور أحدٍ منعها .

يبدو أنّ أعظم مآسي البشر تصل ، كأنّها لم تخطر ببال ، بخطواتِ ذئب حذر ، لتوجّه إلينا طعناتها المباغتة والماكرة كلسعة العقارب...

باستطاعتي رسمهنّ وكأنّهن ما زلن أمام ناظري ، بابتسامة الإناث المرّة والخسيسة الباردة ، بنظرتهنّ الضائعة فراسخَ عبر الجدران . كانت اللحظات تمرّ قاسيةً ، والكلمات تدوّي مثل صوت شبح...

ـ أطبق الليل .

ـ نلاحظ ذلك...

لا بدّ أنّ البومة على شجرة السرو .

ـ حدث ذلك في مثل هذه الليلة .

ـ بلى .

ـ بل بعدها بقليل...

ـ نعم .

ـ الهواء الأصفر الغدّار ما زال في الريف... ... ...

ـ ضائعاً بين الزيتون...

ـ نعم .

عاد الصمت بناقوسه المتطاول لملء الغرفة .

ـ أين تراه ذلك الهواء ؟

ـ ... ...

ـ الهواء الأصفر الغدّار ؟...

ـ تأخرت لولا بعضَ الوقت في الردّ .

ـ لا ادري .

ـ لا بدّ أنّه وصل البحرَ!

ـ يخترق أطفالاً...

ولا حتى اللبؤة المُهاجمَة كان باستطاعتها أن تملك حركة زوجتي تلك .

ـ كي تتشقّق الواحدة مثل رُمّانة!... ننجبُ كي يحمل الهواءُ الأصفر ما أنجبناه ، عقاب سيئُ بانتظارك!...

ـ لو باستطاعة عرق الماء الذي ينبع قطرةً قطرةً في أعلى الغمر أن يخنق ذاك الهواء الأصفر .

... ...

١٢

ـ أنا حتى عظام جسدك!

ـ ... ...

ـ حتى لحمك ، لحم الرجل الذي لا يطيق الزمان!

... ...

ـ لا يُطيق شمس الصيف!

... ...

ـ ولا برد تشرين الثاني!

... ...

ـ لهذا رعيتُ ثديَيَّ قاسيين مثل الحجارة!

ـ ... ...

ـ لهذا رعيتُ فمي رطباً كالدّراق!

ـ ... ...

ـ لهذا منحتك ولدين ، لم يعرف خبب الخيول ولا الهواء الأصفر كيف يتحملهما!

كانت كالمجنونة ، كمن مسّتها كل الشياطين ، مهتاجة وباردة مثل قطّ جبليّ... وأنا ألزم الصمت ساكتاً على الحقيقة الكبرى .

ـ أنت مثل أخيك! ـ طعنة الغدر التي كانت تتلذّذُ زوجتي بتوجيهها إليّ...

ـ ... ...

لا يجدينا اسراع الخُطى نفعاً حين تباغتنا العاصفة وسط السهوب . نتبلّل ذاتَ البلل ونُنهك أكثر بكثير ، فالصاعقة تقلقنا ودوي الرعد يرعبنا والدم ، الذي يبدو منزعجاً ، يسوط أصداغنا وحناجرنا .

ـ آهٍ لو رأى والدك إستِبان قلّة همّتك!

ـ ... ...

ـ دمك الذي ينسكب على الأرض حين تلامسها!

ـ ... ...

ـ هذه المرأة التي عندك!...

هل كان عليّ أن أتابع ؟ كثيراً ما تلألأت الشمس للجميع ، لكنّ نورها ، الذي يُعمي المُهقَ لا يحرّك عند الزنوج جفناً...

ـ لا تتابعْ!

لم يكن باستطاعة أمّي أن تأخذ عليّ ألمي ، الألم الذي خلّفه في صدري ولدي الميّت ، المخلوق الذي كان مثل شهاب في أشهره الأحد عشر...

قلته لها بوضوح ، بكل الوضوح الممكن .

ـ على النار أن تحرقنا كلينا ، يا أمي .

ـ أيّة نار ؟

ـ النار التي تلعبين بها...

قامت أمّي بحركة استغراب .

ـ ما الذي تريدُ قوله ؟

ـ إنّ قلبنا نحن الرجال شديد البأس .

ـ لا يفيدكم في شيء...

ـ يفيدنا في كلّ شيء!

لم تكن أمّي تفهم ، أمي لم تكن تفهم . كانت تنظر إليّ . تُكلّمني... آه ، لو أنّها لا تنظر إليّ!

هل ترين الذئاب التي تجوب الجبل ، الباشق الذي يطير حتى الغيوم ، الأفعى التي تترصّد بين الحجارة ؟

... ...

ـ الرجلُ أسوأ منها جميعاً!

ـ لماذا تقول لي هذا ؟

ـ لا لشيء!...

فكّرت أن أقول لها :

ـ لأنَّ عليّ أن أقتلكنّ!...

لكنّ صوتي اشتبك بلساني .

... ...

... ...

وبقيت وحدي مع أختي ، البائسة ، الملطخة بشرفها ، تلك التي كانت تلطخ بنظرتها النساء العفيفات .

ـ هل سمعت ؟

ـ نعم .

ـ ما كنتُ لأصدّق!

ـ ولا أنا...

ـ لم أفكّر قط أنّني رجل ملعون .

ـ لستَ كذلك...

هبّ الهـواء فـوق الجـبل ، ذلك الهـواء الأصـفـر الذي جـرى بين أشـجـار الزيتون ، ووصل البحر مخترقاً الأطفال... كان يصرّ في النافذة أنيناً .

كانت روساريو وكأنّها باكية .

ـ لماذا تقول بأنّك رجل ملعون ؟

ـ لست من يقوله .

... ...

... ...

ـ إنّهما هاتان المرأتان...

كـان لهب القنديل يرتفع وينخفض مـثل التـنفس ، وفي المطبخ تفـوح رائحة أستيلين ، حادّة ولطيفة تنفذ حتى الأعصاب ، تهيِّج اللحمَ ، هذا اللحم المسكين الذي طالما كان بحاجة في تلك الفترة لشيء يهيّجه...

كانت أختي شاحبةً ، فالحياة التي تعيشها خلّفت آثارها القاسية ازرقاقاً حول عينيها . كنتُ أحبّها برقّة ، بالرقّة ذاتها التي تُحبّني بها .

ـ روساريو ، يا أختي العزيزة...

ـ باسكوال...

ـ الزمن ، الذي ينتظرنا نحن الاثنين ، بائس .

ـ كلُّ شيءٍ سيسوى .

ـ إن شاء الله!

وكانت أمّي تعود لتتدخّل .

ـ تسوية سيّئة كما أراها .

وزوجتي ، الخسيسة كأفعى ، تبتسم خبثاً .

ـ محزن جداً انتظار تسوية الله !

ـ الله في الأعالي مثل نسرٍ بنظرته ، لا يفوته شيء .

ـ وإذا سوّاه الله!

ـ لن يحبّنا كثيراً...

ـ ... ...

ـ ... ...

يقتل المرء نفسه دون تفكير ، تأكّدت من ذلك جيّداً ، أحياناً دون قصد . يكره نفسه ، يكره نفسه جداً وبضراوة ، يفتح المدية ، ومع فتحها تماماً يأتي حافياً إلى السرير حيث ينام العدوّ . الوقتُ ليل ، لكنّ ضياء القمر يدخل من النافذة . الرؤية جيّدة . الميت ، من سيموت مُلقى على السرير ، ينظرُ إليه ، يسمعه يتنفّس ، لا يتحرّك ، يبقى ساكناً وكأنّ شيئاً لن يحدث . وبما أنّ الأثاث قديمٌ يخيفنا بصريره الذي يمكن أن يوقظه ، ربّما عليه أن يستعجل الطعنات . العدوّ يرفع الملحفة عن وجهه ويدور . جسمه يعطي حجماً ، الثياب تخدع . يقترب المرء بحذرٍ ، يلمسه بيده بانتباه . إنّه نائم ، نائم جيّداً ، عليه ألاّ ينتبه...

لكن لا يمكن القتل بهذه الطريقة . ويفكّر المرء بالعودة على أعقابه ، يسير ما سارَه... لا ، لا يمكن . فكلّ شيء فُكِّرَ به جيّداً ، هي لحظة ، لحظة قصيرة وبعدها...

لكن أيضاً لا يمكن العودة على الأعقاب . فالنهار سيأتي ولن نستطيع مقاومة نظرته ، تلك النظرة التي ستنغرز فينا حتى ولو لم نصدّق...

يجب الهرب ، الهرب بعيداً عن القرية ، حيث لا أحد يعرفنا ، حيثُ نستطيع أن نبدأ نكره كرهاً جديداً . فالكراهية تتأخر سنواتٍ في حضانتها ، والمرء لم يعد طفلاً وما أن تنمو الكراهية وتخنق نبضنا ، حتى تنقضي حياتنا . فالقلب لا يؤوي مزيداً من المشقّة وهاتان الذراعان اللتان فقدتا قوتهما ستسقطان ......

١٣

بقيت قرابة شهرٍ كامل دون كتابة ، مستلقياً على ظهري فوق الخرقة ، أرى الساعات تنقضي ، تلك الساعات التي تبدو أحياناً مجنّحة وأخرى نتصوّرها مشلولة ، تاركاً خيالي يحلّقُ طليقاً ، الشيء الوحيد الحرّ عندي ويستطيع أن يطير ، متأملاً انسلاخات السقف ، باحثاً لها عن شبيه ، تمتّعت خلال هذا الشهر الطويل ـ على طريقتي ـ بالحياة كما لم أتمتّع بها في كلّ السنوات السابقة : على الرغم من كلّ الهموم والقلق...

حين يغزو السلام النفوس الخطّاءة يكون مثل الماء الذي يسقط على الأرض البور ، يخصب اليابسَ ويجعل القاحلَ يثمر . أقول ذلك لأنّني تأخّرت زمناً أطول ، أطولَ بكثير من المتوجّب حتى تحقّقت من أنّ السكينة مثل مباركة السماء ، مثل أعزّ مباركة ليس في متسع الفقراء والمرعوبين انتظارها ، الآن أعرف ، فالسكينة الآن ترافقني مع حبّها ، أتمتّع بها بحماسةٍ وفرحٍ ، أخاف كثيراً ، على قلّةِ ما بقي لي من نفس ـ وقليل ما بقي ـ أن ينفدا قبل الأوان . من المحتمل لو أنّ السلام جاءني قبل سنوات ، أن أكون في هذه المرحلة على الأقل راهباً كرتوزياً ، لأنني رأيت فيها من النور والرغد ما يجعلني أشكّ كثيراً بأنّني كنتُ سأُسحر كما أنا مسحور اليوم . لكنّ الله

لم يشأ أن يحدث ذلك ، واليوم أجدُ نفسي محبوساً وقد وقع على رأسي حكمٌ لا أدري إن كان من الأفضل أن يقع دفعة واحدة أم أن يستمرَ هذا الاحتضار في تطاوله ، الاحتضار الذي أتمسّك به بحبّ أكبرَ ، إن أمكن ذلك ، مِنَ الحبِّ الذي سأستخدمه للتمسك به لو أنّ حياتي كانت ناعمة . أنت تعرف تماماً ما أريدُ قوله .

خلال هذا الشهر الطويل الذي خصّصته للتفكير ، كلّ شيء مرّ بي : الألم ، الفرح ، المتعةُ والحزن ، الإيمان ، الكرب والقنوط... يا الله ، وفي أيّ لحمٍ هزيلٍ جئت تُجرّبـ! كنتُ أرتعش كما لو أنّني أصبت بالحمى حين تنقضي حالة من حالات الروح ، لأنّ أخرى كانت ستحلّ محلّها فتغزو الدموعُ عينيّ خائفة . ثلاثون يوماً متواصلاً للتفكير بشيءٍ واحد زمنٌ طويل لرعاية أعمق حالات الندم ، الانشغال بفكرة واحدة هي أنّ كلّ سيئ ماضٍ يقودني إلى الجحيم... أحسد الناسكَ والطيبة على وجهه ، الطائرَ في السماء ، السمكة في الماء ، بل والضواري في الأدغال ، لأنّ ذاكرتها مرتاحة ، سيّئٌ ، الزمن المقضي في الخطيئة سيِّئٌ !

البارحة اعترفتُ : أنا من أخبر الراهب . جاءني راهب عجوز وأمرد . الأب سانتياغو لورونِيا ، طيب ، محزون ، محسن وبالٍ مثل نملة .

إنّه السادن ، الذي يقيم القدّاس أيّام الآحاد ، القدّاس الذي يسمعه مئة قاتل ، وبضعة عشر شرطياً وزوجين من الراهبات...

استقبلته حين دخل واقفاً .

ـ مساء الخير ، يا أبانا .

ـ أهلاً ، يا بُني ، قالوا لي إنّك طلبتني .

ـ بلى ، يا سيّد ، أنا طلبتك .

ـ اقترب منّي وقبّلني على جبيني . كانت قد مضت سنوات كثيرة لم يُقبّلني فيها أحد...

ـ هل كي تعترف ؟

ـ نعم ، يا سيّد .

ـ أسعدتني ، يا بُنيّ!

ـ أنا أيضاً سعيد ، يا أبتاه .

ـ الله يغفرُ كلّ شيء ؛ الله رحيم...

ـ نعم ، يا أبتاه .

ـ ويسعده عودة النعجة الضالّة .

ـ نعم ، يا أبتاه .

ـ عودة الابن الضال إلى البيت الأبوي .

كان يمسك يدي المستندة إلى ثوبه بحنان وينظرُ إلى عينيَّ كما لو أنّه يريدني أن أفهمه أكثر .

ـ الإيمان مثل النور ، يهدي أرواحنا عبر ظلمات الحياة .

ـ نعم...

ـ مثل ترياقٍ عجيب للأرواح الموجوعة...

كان الأب سانتياغو متأثراً وصوته يرتعش مثل صوت طفلٍ خجول . نظر إليّ مُبتسماً ابتسامة ناعمة نعومة ابتسامة قدّيس .

ـ هل تعرف معنى الاعتراف ؟

أخافني الجواب . اضطُررت للقول بخيطٍ من صوت :

ـ ليس كثيراً .

ـ لا تهتمّ ، يا بُني . لا أحد يولدُ عالماً .

شرح لي الأب سانتياغو بعض الأمور التي لم أفهمها تماماً ، وتبدو أنّها حقيقية ، لأنّ فيها وقع الحقيقة . بقينا نتحدّثُ وقتاً طويلاً ، تقريباً طوال المساء ، وحين انتهينا كانت الشمس قد تجاوزت خطّ الأفق...

ـ حضّر نفسك لتلقى الغفران ، يا ولدي ، الغفران الذي أمنحكَ باسم الربّ ، إلهنا .

تلا معي صلاة : أيّها الرب يسوع...

وحين باركني السيّد سانتياغو اضطررت لأنّ أبذل جهداً استثنائياً لتلقيها مبعداً أفكار السوء عن رأسي ، تلقيتها بأفضل ما استطعتُ . خجلتُ كثيراً ، كثيراً جداً ، لكن ليس كما ظننت أنّني سأخجل .

لم أستطع أن أُغمض عيناً طوال الليل واليوم أنا منهك ومحطّم ، كما لو أنّهم صفعوني ، ومع ذلك وبما أن كومة الأوراق التي طلبتها من المدير صارت عندي ، وبما أن الخروج من الانكسار الذي أغرقٍ فيه ، أمرٌ ممكن حين أُسَوِّدُ أوراقاً وأوراقاً فقط ، سأرى نفسي أبدأ من جديد ، أمسك بخيط القصّة وأدفع بهذه المذكرات كي أضعها على سكّة النهاية . سنرى ما إذا كنتُ سأجد القوّة الكافية ، التي أنا بحاجة إليها تماماً . حين أُفكّر بأنّ قصّتي ، إذا ما سرّعت الأحداثَ قليلاً ، ستتعرّض لأن تتقلّص إلى النصف كما لو أنّها مبتورة ، تنتابني حالات من الضيق والعجلة أرى نفسي بحاجة إليها وأرغب فيها للسيطرة عليها ، لكنّني أفكّر إذا ما كتبتُ كما أكتبُ ، قليلاً

قليلاً وبحواسّي الخمس لن تخرج الحكاية واضحة تماماً وأنّني لو أطلقتها مثل الدفق فإنّها ستخرج باهتة وخرقاء بحيث أنّه ولا حتى أبوها ـ الذي هو أنا ـ سيقبل بنوّتها . هذه الأشياء التي للذاكرة جزء جيّد فيها يجب رعايتها بأكبر قدر ممكن من الحنان ، لأنّ قلب الأحداث لن يأتي بحل للقضية بل بحرق الأوراق والشروع من جديد بالكتابة ، هذا الحلّ الذي أهرب منه كما أهرب من خطر ، لسببٍ واحد هو أنّ الناتج الثاني لا يكون جيّداً... ربّما وجدتَ أنّ دأبي في أن تكون المحاولات الثانية جيّدة فيه غرور ، بينما الأولى في غاية السوء . ربّما فكّرت والبسمة على فمك أنّ محاولتي عدم الاستعجال ، كي تخرج الأمور أفضل ، في هذا الذي يقوم به أيّ شخص متعلم بكلّ طبيعية وبساطة ، لكن إذا ما أخذت بعين الاعتبار أنّ الجهد الذي بذلته خلال أربعة أشهر في الكتابة دون توقّف تقريباً ، لا يمكن أن يُقارن بأي شيءٍ قمت به في حياتي ، فمن المحتمل أن تجد أنّ الأمور ليست أبداً كما كنّا نتصوّرها من النظرة الأولى ، وهكذا يحدث أنّه عندما نبدأ برؤيتها عن قرب وحين نبدأ العمل بها ، تصبح ذات جوانب مجهولة وفي غاية الغرابة وأنّها لا تترك لنا من الفكرة الأولى ولا حتى ذكراها ، هذا ما يحدث للرسائل التي نتصوّرها ، للشعوب التي سنتعرف عليها والتي نكوّنها بهذا الشكل أو ذاك في رؤوسنا ، كي ننساها أمام ما هو حقيقي . هذا ما حدث لي مع هذه الأوراق ، إذا كنتُ قد فكّرت في البداية أنّني سأنهيها في ثمانية أيّام فاليوم ـ وبعد مئة وعشرين يوماً ـ أبتسمُ بمجرّد التفكير بسذاجتي .

لا أعتقد أن رواية الفظاعات التي تابَ عنها المرءُ خطيئة . قال لي السيّد سانتياغو أن أفعل ذلك إذا كان يواسيني ، وبما أن الأمر خطير ومن المأمول من السيّد سانتياغو أن يعرف أين يمضي في أمور تتعلق بالوصايا ، فإنّني لا أرى ما يغضب الله في متابعتي لها . هناك لحظات تؤلمني فيها رواية

حياتي البائسة تفصيلاً بتفصيل ، كبيراً كان أم صغيراً ، لكن وللتعويض هناك أيضاً لحظات أستمتع فيها أشرفَ استمتاع ، ربّما لأنّ روايتها ، وقد بعدت بها المسافة ، تُشعرني وكأنّني أرويها سماعاً وعن مجهول . اختلاف كبير بين ما مضى وما أحاول أن يمضي ، لو كان بالإمكان أن يعود ويبدأ! لكن يجب قبول ما لا بدّ منه ، ما ليس له حلّ ممكن ، ولات ساعة مندم ومحاولة تفادي الاستمرار ، وفعلاً أتفاداه ، وإن كان - وهذا صحيح - بمساعدة السجن . لا أريد أن أُبالغ بوداعتي في هذه الساعات الأخيرة من حياتي ، لأنّني أتصوّر أنّني أسمع من فمك عبارة : بعد هذا الكبر ثوب أحمر ، هذه العبارة التي أفضّل ألاّ تُلفَظَ ، لكنّني أريدُ مع ذلك أن أترك الأشياء منتهية وأؤكدَ لك أنّه لو سارت حياتي كلّها في دروب اليوم لكانت مثلاً للأُسَرِ .

سأتابع . فشهر دون كتابة هدوء كبير بالنسبة لمن صارت نبضات قلبه معدودة ، وهدوء أكثر من اللازم بالنسبة لمن أجبرته العادة على ألا يكون هادئاً .

١٤

لم أضيّع الوقت في التحضير للهرب ؛ هناك مسائل لا تحتمل الانتظار ، وهذه واحدة منها . قلبتُ الصندوق في الكيس ، أفرغتُ غرفة المؤونة في الخرج ، وصابورة أفكار السوء في قاع الجبّ وانصرفتُ مستغلاً الليلَ مثل خنزير ، شرعتُ في الطريق ورحتُ أسيرُ ـ دونَ أن أدري إلى أين أذهب ـ متوغّلاً في الريف دون انقطاعٍ ، حتى إذا بزغ الفجر وشعرت أنّ التعب في عظامي طفح ، صارت القرية خلفي ، ثلاثة فراسخ على الأقل . وبما أنّني لم أبغِ التوقّف لأنّه قد يوجد من يعرفني في تلك الأرض ، أخذتُ غفوة قصيرة في حقل من الزيتون موجود على حافّة الطريق ، أكلتُ لقمةً من احتياط الطعام وتابعت طريقي بهمّة كي آخذ القطارَ بقدر ما أستطيع من السرعة . كان الناس ينظرون إليّ باستغراب ، ربّما بسبب مظهر الرجل الجوال الذي يعلوني والأطفال يتبعونني بفضول حين أعبر القرى كما يتبعون الهنغاريين أو المغامرين ، ترافقني نظراتهم القلقة وسلوكهم الصبياني ، بعيداً عن إزعاجي ، ولولا أنّ خوفي من النساء كان آنذاك كخوفي من الهواء الأصفر القاتل لتجرّأتُ وأهديتهنّ شيئاً مما كان معي .

أدركتُ القطار في دون بِنيتو ، حيثُ طلبتُ تذكرة إلى مدريد ، ليس

بنيّة البقاء في العاصمة بل المتابعة إلى أيّة نقطةٍ أستطيع العبور منها إلى أمريكا . جاءت الرحلة لطيفة ، لأنّ العربةَ التي ذهبتُ فيها لم تكن سيّئة التجهيز ، ومشاهدةَ الريف يمرّ ، مثل ملحفة هناك يدٌ خفيّةٌ تسحبُها ، كانت جديدة عليّ ، ولأنّني عرفت أنّنا وصلنا إلى مدريد لأنّ الجميع هبطوا ، فقد اعتقدت أنّنا من البعد عن العاصمة بحيث تصوّرتُ أنّ قلبي تلفّت في صدري ؛ التفاتة القلب هذه التي تحدث كلّما وقعنا على الأكيد ، على ما ليس منه بدّ ، القريب جداً بالنسبة للبعد الذي تصوّرناه به .

وبما أنّني كنتُ حذراً جداً من الشطارة الموجودة في مدريد ووصلنا ليلاً ، الساعة المناسبة كي أقع بين أيدي المكارين والنشّالين ، فكّرت أنّ من الحكمة بمكان أن أنتظرَ الفجر للبحث عن مأوى وأمكثَ خلال ذلك غافياً على مقعد من المقاعد الكثيرة الموجودة في المحطّة . هكذا فعلتُ ، بحثتُ عن واحدٍ متطرّفٍ ، بعيداً قليلاً عن الضجّة الكبيرة واتخذت أفضل وضعية مريحة استطعتها ، دون أيّة حماية غير حماية ملاكي الحارس ، فنمت نومَ الحجر ، على الرغم من أنّني فكّرت حين استلقيت أن أقلّدَ نوم الحجل ، عين ساهرة بينما ترتاح الأخرى . نمتُ عميقاً ، حتى التاسعة صباحاً تقريباً . وحين استيقظت كان البرد الذي تسرّب إلى عظامي والرطوبة التي شعرتُ بها في جسدي من الحجم بحيث فكّرت أنّ من الأفضل لي ألاّ أتوقّف لحظة واحدة أكثر ، فخرجتُ من المحطّة ، اقتربتُ من مجموعة من العمّال اجتمعوا حول صلاء من النار ، أحسنوا استقبالي واستطعت أن أطرد البرد من جلدي على دفء الجمر . الحديث الذي كان في البداية كالمُحتَضَر ، انتعش وبما أنّ أولئك الناس بدوا لي طيّبين وما أحتاجه في مدريد هو أصدقاء ، أرسلتُ أحد المشرّدين الصغار الذين كانوا هناك في طلب ليتر من النبيذ ، لم ينلني ، ولا الذين كانوا معي منه قطرة واحدة ، لأنّ الصبيَّ الذي يبدو أنّه كان أشطر من

علي بابا ، أخذ النقودَ ولم نـر له أثراً بعدها . وبمـا أنّ هدفي كان إكـرامهم ويهمّني ، على الرغم من ضحكهم من فعلة الصبيّ ، أن أقيم معهم صداقة ، انتظرت حتى بزوغ الفجر فخطفتُ خطوي إلى إحدى المقاهي الشعبية ، حيث دفعت فنجان قهوة بالحليب لكلّ واحدٍ منهم ، ممـا أفادني في شدّهم امتناناً كلّياً نحوي . حدّثتهم عن مبيتي فتطوّع واحدُ منهم ـ اسمه أنخِل إستِبِثْ ـ لإيوائي في بيته وتقديم وجبتين يومياً ، كلُّ ذلك مقابل عشر ريالاتٍ ، السعر الذي لم يبـدُ لي وقتـذاك مرتفعـاً ، لو لم يحـدث أنّها زادت كلّ يوم عـشرة أخرى على الأقل ، كان يكسـبهـا منّي هذا الـ إستِبِثْ ليليـاً بلعبـة السـبعة والنصف التي كان مولعاً بها هو وزوجته .

لم أمكث في مـدريد أيّاماً كثيرةً ، لم تصل إلى خـمسة عشر يوماً ، الزمن الذي خصّصته لتسليتي بأرخص ما استطعتُ ولشراء أشياء بسيطة كنتُ بحاجـة إليـهـا بسـعـر جيّد من شـارع بوسـتـاس وسـاحـة بلاثا مـايور في المساءات ، عند غروب الشمس ، ثم أذهب لأنفق بيزيتا في مقهى غناء كان في شارع الجمارك (لأدوانا) ـ وكان يدعى جنّة الموسيقى ـ فأمكث فيه أرى الفنانين حتى ساعة العشاء حيث أمضي إلى علّيّة هذا الـ إستِبِثْ في شارع العجلة . عادة ما كنتُ أجده هناك حين أصلُ ، فتُخرج زوجته الطبيخ ، نأكلُ ثم نلعب الورق برفقة جارين يصعدان كلّ ليلة ، حول السرير وأقدامنا حول المنقل حتى الفجر . كانت تلك الحياة بالنسبة إليّ مسلية ولولا أنّني اتخذت قراراً حاسماً بالعودة إلى القرية بقيتُ في مدريد حتى آخر سنتيم معي .

كان بيت مُضيفي مثل برج الحمام ، مرتفعاً ، كما هي حاله في أعلى السطح ، لكن وبمـا أنّهـمـا لم يكونا يفتحـانه ولا بطلب مـعـروف والمنقل مشتعل ليلاً ونهاراً ، لم يكن الجوّ سيّئاً حين نجلس حوله وأقدامنا تحت

الطاولة . الغرفة التي خصّوني بها كان سقفها مائلاً من الجهة التي علّقا فيها الخرقة ، وفي أكثر من مناسبة طرق رأسي بالعارضة البارزة التي لم أكن أنتبه إلى وجودها هناك إلى أن اعتدت عليها . بعد ذلك وحين اعتدت المكان انتبهت إلى صواعد ونوازل الغرفة وصار باستطاعتي أن أدخل في السرير مغمضَ العينين . كلّ شيء بحسب ما نعتاد .

زوجته ، التي تدعى ، بحسب ما قالت لي بنفسها ، كونثِپْثيون كاستيّليو لوپِّثْ ، كانت صبيّة ، رقيقة ، بوجهٍ خبيث يضفي عليها ظرافةً ، مغرورة ، وحيوية كما هو معروف عن المدريديات ، تنظر إليّ بكلّ وقاحة وتكلّمني عن كلّ شيء ، لكن سرعان ما برهنت ـ بحيث رحتُ أتلهف كي تبرهن لي عن ذلك ـ أنّه ليس هناك ما يمكن فعله أو انتظاره منها . فهي عاشقة لزوجها ، ولا يوجد بالنسبة إليها رجل آخر ؛ كان شيئاً محزناً ، لأنّها من الجمال واللطف بحيث لا يمكن أن يوجد مثلها إلاّ القليلات ، على الرغم من أنّها بدت لي مختلفة عن نساء منطقتنا ، لكن وبما أنّها لم تمنحني أيّة فرصة وكنتُ خائفاً راحت تتحرّر وتنمو أمام ناظري إلى أن جاء يوم رأيتُ أنّها من البعد بحيث لم يعد يخطر لي التفكير بها . كان زوجها غيوراً مثل سلطان ، وثقته بزوجته قليلة ، لا يتركها تطلّ ولا حتى على الدرج . أتذكّر أنّه خطر لـ إستَيِپْثْ أن يدعوني ذات أحدٍ للقيام بنزهة في الرِتيرو برفقة زوجته ، وقضى الساعات يثقل نفسه بما إذا كانت تنظر أو تسمح لهذا أو ذاك بالنظر إليها ، الثقل الذي كانت تتحمّله زوجته برضى وودّ بادٍ على وجهها ، وهذا هو أكثر ما أربكني ، لأنّه أقل ما كنتُ أنتظره منها . رحنا نجولُ في الرِّتيرو في الممر الذي بجانب البحيرة ، وفي واحدة من هذه الجولات تورّط هذا الـ إسْتَيِپْثْ في نقاشٍ صارخٍ مع شخص كان يمرّ من هناك بسرعة وطريقة مصطنعة جعلتني لا أحتفظ إلا بنصف ما قالاه : تشاجرا لأنّ الآخر كما يبدو

نظر إلى كونثِبْثيون ، لكن أكثر ما أستغربه حتى الآن هو كيف لم يتوصّلا رغم سيل الشتائم التي تقيّآها ، لم يصلا إلى استخدام الأيدي . شتما أميهما ، ناديا بعضهما بعضاً وبأعلى صوت بالقوّاد والديوث ، وقالا إنهما سيأكلان كلٌّ معلاق الآخر مشوياً ، أغرب ما في الأمر أنّهما لم يلمس الواحدُ منهما شعرة في ثياب الآخر . كنتُ خائفاً وأنا أرى عادة غير مألوفة لكن وكما هو طبيعي لم أتدخّل ، مع أنّني احتطتُ للتدخل في حال اللزوم دفاعاً عن صديقي . وحين ملاّ من قول السفاهات ، مضى كلّ واحد من حيث جاء ولم يحدث شيء .

الأمور ممتعة بهذا الشكل! لو كان لرجال الريف تساهل سكان المدن لأقفرت السجون إقفارَ الجزر...

بعد قرابة أسبوعين ، ومع أنّني لم أكن أعرف من مدريد كثيراً ، فهي مدينة لا يمكن معرفتها بسرعة ، قرّرتُ متابعة رحلتي إلى حيث حدّدت وجهتي . جهّزتُ أمتعتي القليلةَ التي كنتُ أضعها في حقيبة صغيرة اشتريتها ، قطعتُ تذكرة قطار وخرجتُ برفقة إستِبِثْ ، الذي لم يفارقني لحظة واحدة ، إلى المحطّة ـ اوهي غير التي وصلتُ إليها ـ وشرعت رحلتي إلى لا كورونيا ، التي كانت بحسب ما أكّدوا لي المكان الذي تتقاطع فيه البواخر الذاهبة إلى الأمريكتين . كانت الرحلة إلى الميناء أبطأ من تلك التي قمتُ بها من قريتي إلى مدريد ، لأنّ المسافة أطول لكن وبما أنّ الليل تدخّل ولم أكن ممن تمنعهم الحركة وضجيج القطار من النوم انقضى الوقتُ بأسرع مما ظننتُ ، أخبرني به جيراني وبعد ساعات من استيقاظي وجدتُ نفسي على شاطئ بحر ، هو أكثر ما صعقني في حياتي لأنّه بدا لي في غاية العظمة والعمق .

حين عالجتُ بعض الأمور الصغيرة انتبهت جيّداً إلى سذاجتي إذ ظننتُ

أنّ البيزيتات القليلة التي جئتُ بها في الكيس تكفيني للوصول إلى أمريكا . لم يكن قد خطر ببالي قط الغلاء الذي كان عليه السفر بحراً! ذهبتُ إلى الوكالة ، سألت في إحدى الكوات فأرسلوني للسؤال إلى أخرى ، انتظرتُ في صفٍّ ثلاثَ ساعات على الأقل وحين اقتربتُ من الموظّف وأردتُ أن أستقصي عن المكان الأنسب إليّ وكم سيكلّفني ، دار نصفَ دورة ـ دون أن ينبس ببنت شفة ـ ليعود إلى النقطة التي بدأ منها والورقة في يده .

ـ جهات السفر... التسعيرة... الخروج من لاكورونيا يومي ٥ و ٢٠ .

ـ حاولت أن أقنعه بأنّ ما أريده هو الكلام معه عن رحلتي ، لكن دون جدوى . قاطعني بجدّية أفقدتني صوابي .

ـ لا تلحّ .

غادرت حاملاً معي جهتي وتعرفتي محتفظاً في ذاكرتي بأيّام الانطلاق . ما الحيلة!

نَزَلَ في النزل الذي عشتُ فيه رقيبٌ في المدفعية تطوّعَ ليفكّ لي ألغاز ما تقوله الأوراق التي أعطوها لي في الوكالة ، وما إن كلّمني عن السعر وشروط الدفع وحسبت بأنّ ما يتوفّر معي لا يصل لنصف المطلوب ، حتى سقطت روحي عند قدميّ . لم تكن المشكلة التي واجهتني صغيرة ، ولم أكن لأجد لها حلاً ؛ شجّعني الرقيب الذي كان يُدعى أدريان نوغِيْرا كثيراً ـ هو كان هناك أيضاً ـ وحدّثني باستمرار عن هافانا بل وعن نيويورك أيضاً . ـ وأنا ـ لماذا سأخفي ـ كنتُ أصغي إليه كالمسطول وبحسد لم يكن لي قط تجاه أحد ، لكن وبما أنّني انتبهتُ أنّ الشيء الوحيد الذي أكسبه بالاستماع إليه هو أنّ أسناني تطول ، رجوته ذات يوم ألاّ يتابع لأنّني اتخذت قراري بالبقاء في البلد . علت وجهه علامة ارتباك لم أرها فيه

قط ، لكن وبما أنّه كان محتشماً ورصيناً مثل كلّ الجليقيين لم يحدثني بعدها عن المسألة إطلاقاً .

وصل الحالُ برأسي أنّه طُحِنَ من كثرة ما فكّرتُ بما عليّ أن أفعله وكيف أنّ أيّ حلٍّ باستثناء العودة إلى القرية كان مقبولاً ، تمسكت بكلّ ما مرّ بي ، حمّلت حقائب في المحطّة وإبالات في المرفأ ، ساعدت في أعمال المطبخ في فندق السكة الحديدية ، عملت حارساً ليلياً في معمل التبغ ، اشتغلتُ قليلاً في كلّ شيء إلى أن انتهى وقتي في ميناء البحر وأنا أعيش في بيت لا أباتشا ، في شارع البرغواي صعوداً إلى اليسار حيث أقوم بقليل من كلّ شيء ، على الرغم من أنّ عملي الرئيس كان يقتصر على رمي من يلاحظ أنّهم لا يذهبون إلا لإثارة المتاعب إلى الشارع .

بقيتُ هناك سنة ونصف ، إضافة إلى نصف السنة التي قضيتها في العالم وخارج بيتي ، وهذا ما جعلني أتذكّر كثيراً ما ظننت إنّني تركته هناك ، في البداية ليلاً فقط ، حين كنتُ أدخل في الفراش الذي يضعونه لي في المطبخ ، لكن سرعان ما راح التفكير يطول ساعات وساعات إلى أن جاء اليوم الذي اجتاحني فيه الاشتياق ـ كما يقول أهل لاكورونيا ـ إلى حدّ أنّني تلهّفتُ لأجد نفسي في الخصّ على الطريق . فكّرتُ أنّ العائلة ستُحسِن استقبالي ـ فالزمن كفيل بمعالجة كلّ شيء ـ وراحت الرغبة تكبر في داخلي كما يكبر الفطرُ في الرطوبة . طلبت سلفةً كلّفني الحصول عليها جهداً كبيراً ، لكنّني حصلت عليها بالإصرار قليلاً ، كما يحدث في كلّ شيء ، وذات يوم وبعد أن ودّعت كلّ من حماني والأباتشا على رأسي ، شرعتُ في طريق العودةِ ، الرحلة التي كانت ستنتهي بالسعادة لولا أنّ الشيطان أخذ على عاتقه ـ وهو ما لم أكن أعرفه وقتذاك ـ أن يفعل فعله ببيتي وزوجتي خلال غيابي . طبعاً لا يعدو أن

يكون طبيعياً أنّ يظهر على زوجتي ، الشابة والجميلة آنذاك ، على الرغم من قلّة ثقافتها ، غيابي كزوجٍ ، هربي ، خطيئتي الكبرى ، التي كان عليّ ألا أرتكبها أبداً وعاقبني الله عليها لا أدري ما إذا كان بقسوة...

١٥

كانت قد مضت سبعةُ أيّام على وصولي حين قَطَعَت زوجتي ، التي استقبلتنني بكلّ ودّ على الأقل ظاهرياً ، عليَّ أحلامي لتقول لي :

ـ أفكّر أنّني استقبلتك ببرودٍ شديد .

ـ لا ، يا امرأة!

ـ المسألة أنّني لم أكن أنتظرك ، هل تدري ؟ ، لم أعتقد أنّني سأراك تصل...

ـ لكنّك سعيدة الآن ، أليس كذلك ؟

كانت زوجتي مغمومة ، ويظهر عليها تبدّل كبير في كلّ أشيائها .

ـ هل تذكّرتني دائماً ؟

ـ دائماً ، لماذا تعتقدين أنّني عدتُ ؟

كانت زوجتي تعود لتلزم الصمت من جديد .

ـ عامان زمن طويل...

ـ طويل .

ـ في سنتين يدور العالم دوراتٍ كثيرة...

ـ سنتان ، هذا ما قاله لي بحّار كوروني .

ـ لا تكلّميني عن لاكورونيا!

ـ لماذا ؟

ـ لأنّني لا أريد . حبذا لو لم توجد لاكورونيا!

كانت تقعّر فمها لتقول لي هذا ونظرتها مثل غابة من الظلال .

ـ دورات كثيرة!

ـ كثيرة!

ـ وتفكّر الواحدةُ : في غياب سنتين ، لا بدّ أنّ الله أخذه .

ـ ماذا تريدين أن تقولي أكثر من ذلك ؟

ـ لا شيء!

انفجرت لولا تبكي بكاءً مرّاً . واعترفت لي بخيطٍ من صوت :

ـ سيكون لي ولد آخر .

ـ ولد آخر ؟

ـ بلى .

انتابني رعب .

ـ مِمّن ؟

ـ لا تسأل!

ـ لا أسأل ؟ أريدُ أن أسأل! أنا زوجك!

أطلقت صوتَها .

ـ زوجي الذي يريد أن يقتلني! زوجي الذي يهجرني سنتين! زوجي الذي يهرب منّي كما لو كنتُ مصابة بالبرص! زوجي...

ـ لا تتابعي

بلى ، كان من الأفضل ألاّ تُتابِعَ ، هذا ما كان يقوله لي ضميري . من الأفضل أن نترك الزمنَ يمرُّ ، أن يولد الولد... وسيبدأ الجيران الكلام عن مغامرات زوجتي ، سينظرون إليَّ شزراً ، سيبدؤون التهامس بصوت خافت حين يرونني أمرّ...

ـ هل تريدين أن نستدعي السيّدة إنغراثيا ؟

ـ لقد رأتني .

ـ وماذا قالت ؟

ـ الأمور تسير بشكلٍ جيّد .

ـ ليس هذا... ليس هذا...

ـ ماذا تريد ؟

ـ لا شيء... من المناسب أن نسوّي هذا الأمر بيننا جميعاً .

علت زوجتي علامةُ توسّل .

ـ باسكوال! هل أنت قادر ؟

ـ بلى ، يا لولا ؛ قادرٌ جداً ، هل هو الأوّل ؟

ـ باسكوال! أنا آسفة ، أحسُّ به أقوى من أيٍّ من السابقين ، أحسّ أنّ عليه أن يعيش...

ـ لعاري ؟

ـ أو لسعادتك ، فماذا يعرف الناس ؟

ـ الناس ؟ كيف لن تعرف ؟

كانت لولا تبتسم ، ابتسامة طفلٍ أُسيئت معاملته ، تجرح النظر .

ـ من يدري إذا كنّا سنستطيع أن نجعلهم لا يعرفون!

ـ سيعرف الجميع!

لم أشعر بنفسي سيّئاً ـ يعلم الله ذلك ـ لكنّ المرء مشدود للعادات مثل الحمار إلى رسنه...

لو أنّ وضعي كرجل يسمح لي الغفران لغفرتُ لها ، لكنَّ العالمَ كما هو ومحاولة التقدّم بعكس التيار ليس إلا محاولة غير مجدية .

ـ من الأفضل استدعاؤها!

ـ السيّدة إنغراثيا ؟

ـ بلى .

ـ لا ، بحقِّ الله! إجهاض آخر ؟ هل أبقى ألدُ للولادة ، أربي روثاً ؟

رمت نفسها على الأرض وقبّلت قدميَّ .

ـ أمنحك حياتي كلّها إذا طلبتها!

ـ لا حاجةَ بي إليها .

ـ عينيَّ ودمي ، لأنّني أهنتك!

ـ أيضاً لا .

ـ ثدييّ ، خصلة شعري ، أسناني! أعطيك ما تريد ؛ لكن لا تنزعه منّي فلأجله أنا حيّة!

كان من الأفضل أن أتركها تبكي طويلاً ، إلى أن تسقط منهكة محطّمة الأعصاب ، فتصبح بعدها أكثر هدوءاً وأكثر عقلانية .

يبدو أنّ أمّي ، البائسة ، كانت قوّادتها في كلّ ما حدث ، إذ راحت تمضي وكأنها هاربة فلا تمثل أمام ناظري . حرارة الحقيقة جارحة جداً! تكلّمني أقل الكلمات الممكنة ، تخرج من باب حين أدخل من آخر ، تعدّ لي ـ وهذا ما لم يحدث من قبل ولن يعود ليحدث ـ الطعام في ساعته ـ من المحزن التفكير بأنّه كي يبقى المرء بسلام يجب أن يستخدم التخويف ـ ، وكانت تظهر وداعة في كلّ حركاتها إلى حدّ أنّها استطاعت إرباكي . لم أبغ الكلام معها بموضوع لولا قط ؛ فالمسألة مسألتنا نحن الاثنين ، ولن تُحلّ إلا بين الاثنين .

ناديت يوماً لولا لأقول لها :

ـ تستطيعين أن تكوني مطمئنّة .

ـ لماذا ؟

ـ لأنّه ما من أحدٍ سيستدعي السيّدة إنغراثيا!

بقيت لولا متفكرة لحظةً مثل مالك حزين .

ـ أنت رائع ، يا باسكوال .

ـ بلى ، أفضل مما تعتقدين .

ـ وأفضل منّي أنا .

ـ دعينا من الكلام عن هذا! مع من ... حدث هذا ؟

ـ لا تسألني!

ـ أفضّلُ أن أعرف ، يا لولا .

ـ لكنّني أخاف قوله لك...

ـ تخافين ؟

ـ بلى من أن تقتله .

ـ إلى هذا الحدّ تُحبّينه ؟

ـ لا أحبّه .

ـ إذن ؟

ـ المسألة أنّ الدم يبدو مثل السماد لحياتك...

انحفرت تلك الكلمات في رأسي كما لو بالنار وبما أنّها انحفرت كما لو بالنار ستموت معي .

ـ وماذا لو أقسمت لك أنّ شيئاً لن يحدث ؟

ـ لن أصدّقك .

ـ لماذا ؟

ـ لأنّه غير ممكن ، يا باسكوال! أنت في غاية الرجولة!

ـ الحمد لله ؛ لكنّني ما زلت صاحب كلمة...

ارتمت لولا بين ذراعيَّ .

ـ كنتُ أتمنى أن أعطي سنوات من عمري على أن يكون قد حدث هذا .

ـ أصدّقُك .

ـ ولكي تغفر لي...

ـ غفرت لك ، يا لولا ، لكنّك ستقولين لي...

ـ بلى .

شحبت كما لم تشحب قط ، تفككت ، علا وجهها خوف ، خوفٌ رهيب من أن تأتي الفاجعة مع عودتي ، أخذتها من رأسها ، داعبتها ، كلّمتها بحنان لا يستخدمه حتى أكثر الأزواج وفاءً ، دلّلتها على كتفي ، متفهّماً كثرةَ معاناتها ، وكأنّني أخاف أن يغمى عليها من سؤالي .

ـ من هو ؟

ـ الممطوط!...

ـ الممطوط ؟

لم تُجِب لولا .

كانت ميتة ورأسها ملقى فوق صدرها وشعرها على وجهها... بقيت لحظة في توازن ، جالسة حيث كانت ، لتسقط سريعاً على أرض المطبخ ، التي كانت من الحصى الثقيل جداً...

١٦

عشّ عقارب تململ في صدري وفي كلّ قطرة دمٍ في عروقي ، أفعى تعضّ لحمي...

خرجتُ بحثاً عن قاتل زوجتي ، عن ملطخ شرف أختي ، عن الرجل الذي كان أكثرَ مَنْ حَمَل الصفراءَ إلى صدري ، عانيت في العثور عليه . فالوغد علم بوصولي ، ابتعد ولم يظهر في ألمِندْرالِخو خلال أربعة أشهر ، خرجت للقبض عليه ؛ ذهبتُ إلى بيت آل نييبِسْ ، رأيت روساريو... آه كم تغيّرت! هرمت ، امتلأ وجهها بالتجاعيد ، اسودَ كأسا عينيها وترهّل شعرها ؛ كان منظرها محزناً ، هي التي كانت غاية في الجمال...

ـ عمّ جئت تبحث ؟

ـ جئتُ أبحث عن رجل!

ـ قليل الرجولة من يهرب من عدّوه!

ـ قليلها...

ـ وقليل الرجولة من لا يبقى بانتظار زيارة يتوقّعها .

ـ قليل... أين هو ؟

ـ لا ادري ؛ خرج البارحة...

ـ إلى أين خرج ؟

ـ لا أدري .

ـ لا تدرين ؟

ـ لا .

ـ هل أنت متأكّدة ؟

ـ كما أنا متأكدة الآن من أنّ الوقت نهار .

بدا صحيحاً ما قالته ، فقد برهنت لي روساريو عن ودّها حين عادت إلى البيت للعناية بي ، تاركة الممطوط...

ـ هل تعرفين ما إذا كان قد ذهب بعيداً ؟

ـ لم يقل لي شيئاً .

لم يبقَ من حلّ غيـر دفن العفـريت ، دفع ثمن الغـيظ الذي نكنّه للخسيسين ، لم تكن مسألة رجال قط .

ـ هل كنت تعرفين بما كان يجري ؟

ـ بلى .

ـ وكنتِ صامتة عليه ؟

ـ ولمن كنتُ سأبوح به ؟

لا ، لا لأحد...واقعاً وحقيقةً لم يكن عندها من تبوح له به ، هناك أشياء لا تهمّ الجميع ، أشياء وُجِدَت كي يحملها المرء على كاهله وحده ، مثل صليب الشهادة ويسكت عليها عن الآخرين . لا يمكن أن نقول للناس كلّ ما يجري لنا ، لأنّهم في معظم الحالات لن يعرفوا كيف يتفهموننا .

جاءت روساريو معي .

ـ لا أريد أن أبقى يوماً واحداً هنا ، فقد تعبت .

عادت إلى البيت ، خائفة كأنّها مذعورة ، متواضعة ونشيطة كما لم أرها في حياتي قط ، كانت تعتني بي كما لم ولن أستطيع ردّ جميلها بشكلٍ كافٍ ـ آخ! وهذا هو الأسوأ ـ . دائماً كان هناك قميصٌ نظيفٌ جاهز ، وتمدّني بالمال كأفضل موظفات المالية . تحتفظ لي بالطعام ساخناً إذا تأخرتُ... شيء لذيذ العيش هكذا! فالأيّام تمرّ ناعمة نعومة الريش ، والليالي هادئة كما لو في دير ، والأفكار المشؤومة ـ التي طالما لاحقتني في أزمنة أخرى ـ بدت وكأنّها تريد أن تهدأ . كم بدت لي أيّام لاكورونيا المضنية بعيدة! وكم بدا زمن الطعنات ضائعاً في الذكرى أحياناً! ذكرى لولا ، التي تركت في قلبي ندبة عميقة جداً ، راحت تندمل والأزمنة الماضية راحت تُنسى شيئاً فشيئاً إلى أن جاءت نجمة النحس ، نجمة النحس هذه التي يبدو أنّها مصرّة على ملاحقتي ، أرادت لشقوتي أن تبعثها .

حدث ذلك في حانة مارتينِتِ ، قاله لي السيّد سِباستيان .

ـ هل رأيت الممطوط ؟

ـ لا ، لماذا ؟

ـ لا لشيء ؛ لأنّهم يقولون إنّه في القرية .

ـ في القرية ؟

ـ هذا ما يقولونه .

ـ أنت لا تريد خداعي!

ـ يا رجل! لا تكن هكذا ، أقوله لك كما قالوه لي! لماذا عليّ أن أخدعك ؟

كنت بحاجة إلى وقت كي أتبين ما في قوله من صدق . خرجتُ جارياً إلى بيتي ؛ مضيت مثل شرارة ، دون أن أنظر أين أضع قدمي . وجدتُ أمي في الباب .

ـ وروساريو ؟

ـ هناك في الداخل .

ـ وحدها ؟

ـ نعم ، ولماذا .

لم أجبها ، مضيتُ إلى المطبخ فرأيتها هناك تحرّك القدر .

ـ والممطوط ؟

بدا الرعبُ على روساريو ، رفعت رأسَها وسألت بهدوء ، على الأقل ظاهري :

ـ لماذا تسألني عنه ؟

ـ لأنّه في القرية .

ـ في القرية ؟

ـ هذا ما قالوه لي .

ـ لم يقترب من هنا .

ـ هل أنت متأكّدة ؟

ـ أقسم لك .

لم يكن هناك حاجة كي تقسم لي ، فهو لم يصل بعد ، مع أنّه كان سيصل بعد برهة قصيرة صلفاً مثل ملك ورق السبات ، فشّاراً مثل فرعون .

وجد الباب تحرسه أمّي .

ـ هل باسكوال موجود ؟

ـ لماذا تريده ؟

ـ لا لشيء ، كي أطرح معه مسألة .

ـ مسألة ؟

ـ نعم ؛ مسألة تخصّنا نحن الاثنين .

ـ ادخل ، هاهو هناك في المطبخ .

دخل الممطوط دون أن يستأذن وهو يصفر لحنَ أغنية شعبية .

ـ مرحبا ، يا باسكوال!

ـ أهلاً ، يا باكو! استأذِن فأنت في بيت .

كشف الممطوط عن نفسه .

ـ إذا كنت تريد ذلك .

أراد أن يتظاهر بالهدوء والرزانة ، لكنّه لم يستطع ، فقد بدا عصيباً وكأنه قلق .

ـ مرحباً ، يا روساريو!

ـ مرحباً ، يا باكو!

ابتسمت له أختي ابتسامةً جبانة ، أثارت اشمئزازي ، الرجلُ ابتسم أيضاً ، لكن فمه بدا ، وهو يبتسم ، قد فقد لونه .

ـ هل تعلم لماذا جئتُ ؟

ـ أنت تقول .

ـ جئتُ آخذ روساريو!

ـ تصّورتُ ذلك . يا ممطوط أنتَ لن تأخذ روساريو .

ـ أنا لا آخذها ؟

ـ لا .

ـ ومن سيمنعني ؟

ـ أنا .

ـ أنت ؟

ـ نعم أنا ، أم أنّني أبدو لك شيئاً قليلاً ؟

ـ ليس كثيراً .

كنتُ في تلك اللحظة بارداً مثل ضبٍّ وأستطيع أن أقيس أبعاد أفعالي جيّداً . لمست ثيابي ، قدّرت المسافة وناولته دون أن أتركه يتابع كلامه كيلا يحدث ما حدث في المرّة السابقة ، ضربةٌ قويّة بعارضةٍ على وجهه رمته على قفاه كأنّه ميت فوق قوس المدخنة . حاول أن ينهض ، أخرج السكين من غمدها ، ظهرت على وجهه نيران مخيفة ، كانت قد تهشّمت عظامُ ظهره ولا يستطيع حراكاً . أخذته ووضعته على حافّة الطريق وتركته .

ـ يا ممطوط ، لقد قتلت زوجتي .

ـ كانت ثعلباً .

ـ كائنة ما كانت ، لكنّك قتلتها ولطّخت شرف أختي .

ـ كان شرفها ملطخاً تماماً حين أخذتها!

ـ ممكن أنه كان ملطخاً ، لكنّك حطّمتها! هل تريد أن تخرس ؟ لقد بحثت عني في كل مكان إلى أن عثرت عليّ ، لم أبغ جرحك ، لم أبغ أن أكسر لك أضلاعك...

ـ التي ستتعافى ذات يوم وهذا اليوم...

ـ هذا اليوم ماذا ؟

ـ سأرميك برصاصتين مثل كلبٍ مسعور!

ـ انتبه إلى أنّك طوع إرادتي!

ـ لن تعرف قتلي!

ـ لن أعرف قتلك ؟

ـ لا .

ـ ولماذا تقول هذا ؟ تشعر بثقة كبيرة بنفسك!

ـ لأنّه لم يولد الرجل بعد!

كان الغلام محتدماً .

ـ ألا ترحل ؟

ـ أنا أذهب حين أشاء!

ـ ستذهب الآن حالاً!

ـ أعد لي روساريو .

ـ لا أريد!

ـ أعدها لي وإلا قتلتك!

ـ قلل من القتل! ففيك ما يكفيك!

ـ ألا تريد أن تعطيها لي ؟

ـ لا!

حاول الممطوط وقد قام بجهد هائل أن يرمي بي جانباً .

أمسكته من عنقه وغرزته في الأرض .

ـ امض بعيداً!

ـ لا أريد!

تعاركنا ، رميته واعترفت له وأنا أضعَ ركبتي على صدره :

ـ لا أقتلك لأنّني وعدتها بذلك...

ـ من ؟

ـ لولا .

ـ إذن تحبّني ؟

كان ذلك صلفاً زائداً عن الحدّ . دسته بقوّة أكبر... كان لحم صدره يصدر طقطقة اللحم المشوي ذاتها... بدأ يقذف دماً . وحين نهضتُ مال برأسه ـ خائراً ـ جانباً...

١٧

بقيتُ مسجوناً ثلاث سنوات ، ثلاث سنوات بطيئة ، طويلة مثل العذاب ، فإذا كنتُ قد اعتقدتُ في البداية أنّها لن تنقضي ، فقد فكّرت بعدها بأنّها كانت حلماً ؛ ثلاث سنواتٍ وأنا أعمل ، يوماً بيوم ، في ورشة إسكافيِّ السجن ، أتناول الشمّس في الفرص في الفناء ، تلك الشمس التي كثيراً ما شكرتها وأنا أرى الساعات تمضي متلهّفَ الروح ، تلك الساعات التي أوقف سلوكي الجيّد عدّها قبل وقت...

من المحزن التفكير بأنّها من المرات القليلة التي لم يخطر لي فيها التصرّف بشكل سيئٍ جداً في هذه الحياة ، هذا الشؤم ، نجمة النحس ، كما سبق وقلت لك ، يبدو أنّها تُسرّ بمرافقتي ، لوت الأشياءَ ووضعتها بطريقة لم تفد فيها الطيبةُ روحي في الأمور اللعينة . وأسوأ من ذلك : لم تكتفي بأنّها لم تفِد في شيء بل كان لا بدّ لها أن تقودني بقوّة الضلال والفساد إلى شرٍّ أسوأ . لو أسأت السلوك لكنتُ الآن في تشنتشيليا ، أقضي السنوات الثماني والعشرين التي حُكِمَ بها عليّ ، ولتعفّنت حيّاً مثل كلّ السجناء ، لضجرت حتى الجنون ، قنطتُ ولعنت كلّ مقدّس ، لانتهيت إلى التسمم الكلّي ، لكن هاأنا هنا من جديد مغسولاً ممّا ارتكبت ، حرّاً من جرائم دمٍ جديدة ، سجيناً

ومأسوراً ـ هذا صحيح ـ ورأسي سليم فوق كتفيَ كما كان حين وُلِدت ، متحرراً من كلّ ذنب ، ما لم يكن الخطيئة الأصلية ؛ لو أنّني تصرّفت بلا خير ولا شرّ كما يتصرّف الجميع تقريباً لتحولّت السنوات الثماني والعشرون إلى أربع عشرة أو ست عشرة سنة ، ولماتت أمّي ميتتها الطبيعية حين أحصل على إطلاق سراحي ولفقدت أختي روساريو شبابها ومع شبابها جمالَها ومع جمالها خطرَها ولكنت خرجتُ أنا ـ هذا المهزوم المسكين ، هذا البائس الذي قلّما يثير الشفقة عندك وعند المجتمع ـ وديعاً مثل خروف ، وناعماً مثل بطانية ، وربّما بعيداً عن خطر جريمة جديدة . ولكنت أعيش الآن من يدري أين ، مطمئناً في أيّ مكان ، أقوم بعمل يعود عليّ بالطعام ، أحاول نسيانَ ما مضى كيلا أنظر إلاّ إلى ما سيأتي ، وربّما كنت قد حقّقت ذلك... لكنّني تصرّفتُ بأحسن ما استطعتُ ، واجهتُ الزمنَ الرديء بوجهٍ رضيّ ، ونفّذت ما طُلِبَ مني بمبالغة ، واستطعتُ تليينَ قلبِ العدالة ، وحصلتُ على تقارير المدير الجيّدة... فأطلقوا سراحي ، فتحوا لي الأبوابَ وتركوني أعزل أمام حشد الشرّ وقالوا لي :

ـ لقد وفّيتَ ، يا باسكوال ، عُدْ للنضال ، عُدْ للحياة ، عُدْ لتحمّل كلّ شيء ، للتحدّث مع الجميع والاحتكاك بكلّ شيء...

ظنّوا أنهم عملوا معي معروفاً فأغرقوني للأبد .

هذه الفلسفات ما كانت لتخطر لي حين كتبت هذا الفصل في المرّة الأولى ـ ولا في الفصلين اللاحقين ـ لكنّهم سرقوها منّي(حتى الآن لا أعرف لماذا أرادوا انتزاعها مني) ، حتى ولو بدا لك غريباً حتى أنك لا تصدّقني ، فمن جهةٍ يحزنني هذا الشرّ الذي لا مبرر له الذي يسبّب لي كلّ هذا الألم ومن أخرى تخنقني الإعادة التي ترغم الذكرى وتحرفُ الأفكار فقد خطرت

لريشتي وبما أنّني لا أعتبر معارضة الإرادات عقوبة وعندي من العقوبات ما يكفي بالنسبة لضعف روحي ، وليس بي ما بي لأخطائي الكثيرة ، فإنّني أتركها هناك طازجة كما خرجت كي توليها الاعتبار الذي تشاء .

حين خرجتُ وجدتُ الريفَ أكثر حزناً ، أكثر بكثيرٍ مما تصورّت . من خلال الأفكار التي كانت تخطر بذهني في السجن كنتُ أتصورّه ـ الله يعلم لماذا ـ أخضر نضراً مثل المروج ، مثمراً وجميلاً مثل حقول القمح والفلاحون فيه يعملون بجهدٍ وحيوية ، يعملون بفرح من الشمس وحتى الشمس ، يغنون ودنّ النبيذ بجانبهم ورؤوسهم خالية من الأفكار الشريرة ، لأجده عند خروجي قاحلاً ويابساً مثل المقابر ، مقفراً ووحيداً مثل ناسكٍ محليّ في اليوم التالي من عيد الشفيعة... تشينتشيليا قرية خسيسة مثل كلّ القرى المانتشيية ، مخنوقة كما لو بألم عميق ، رمادية وهزيلة مثل كلّ البلدان التي لا يطل فيها الناس بمخاطمهم على الزمن ولم أمكث فيها إلا الوقت الضروريّ لأخذ القطار الذي عليه أن يعيدني إلى قريتي ، بيتي وأسرتي ؛ إلى القرية التي سأعود وأجدها مرّة أخرى في مكانها ، إلى بيتي الذي يتلألأ تحت الشمس مثل جوهرة ، إلى أسرتي التي تنتظرني لزمنٍ أطول ، ولم تكن تتصورّ أنّني سأكون بينها بهذه السرعة ، إلى أميّ التي ربّما رقّقها الله خلال هذه السنوات الثلاث ، إلى أختي ، أختي العزيزة ، التي ستنطّ فرحاً حين تراني...

تأخّر القطار في الوصول ، تأخّر ساعاتٍ كثيرةً . أستغربُ أنّ رجلاً ينطوي في جسده على ساعاتٍ كثيرة من الانتظار يلاحظ بقلق تأخّرَه ساعة أكثر أو ساعة أقل ، لكنّ الأكيد أنّ هذا هو ما حدث ، كنتُ أضطرم ، أتفكّك انتظاراً ، كما لو أنّ صفقة مهمّة تلتهم الزمن . سرتُ في المحطّة ، ذهبتُ إلى

المطعم ، تنزّهت في حقل كان قريباً… لا شيء ، فالقطار لم يصل ، القطار لم يُطلّ بعد ، كان بعيداً متأخراً . تذكّرت السجنَ ، الذي يظهر هناك بعيداً خلف بناء المحطّة ، بدا مقفراً ، لكنّه مليء حتى التخمة ، حارسٌ لكمّ هائلٍ من الأشقياء الذين يمكن أن تُملأ بحياتهم ، كما هم ، مئات الصفحات ، تذكّرتُ المديرَ ، المرّةَ الأخيرةَ التي رأيتُه فيها ، كان عجوزاً أصلعَ ، بشاربٍ شائبٍ وعينين زرقاوين كالسماء ، ويدعى دونْ كوناردو . أحببتُه كأبٍ ، وشكرته امتناناً على كلمات المواساة الكثيرة التي وجّهها إليّ ـ في مناسبات كثيرة ـ ، آخر مرّة رأيته فيها كانت في مكتبه حيث أرسل في طلبي .

ـ هل تسمح ، يا دون كوناردو ؟

ـ أدخل ، يا ولدي .

كان صوته متعباً بالسنين والسقام ، ينادينا يا ولدي ، فيبدو أنّه يرقّ أكثر ، كأنّ صوته يرتعش حين يمرّ بشفتيه . أمرني بالجلوس على الطرف الآخر من الطاولة ، مدّ يدّه بعلبة السجائر ، الكبيرة التي من جلد الماعز ، أخرج دُفَيْتِرَ ورقِ سجائر قدّمه إليّ أيضاً .

ـ لُفافة ؟

ـ شكراً ، يا دونْ كوناردو .

ضحك دونْ كوناردو .

ـ للكلام معي من الأفضل أن يكون هناك دخان كثير… بذلك تخفّ رؤيتي لهذا الوجه القبيح الذي تحمله!

أطلقَ قهقهةً ، قهقهة اختلطت أخيراً بنوبة سعال ، نوبة سعال دامت حتى كادت تخنقه ، إلى أن تركته منتفخاً ومحمراً مثل حبّة بندورة . مدّ يده إلى

أحد الأدراج وأخرج كأسين وزجاجة كونياك . خفتُ ؛ فقد أحسن معاملتي دائماً ـ هذا صحيح... ـ لكنّ ليس مثل ذلك اليوم أبداً .

ـ ماذا هناك ، يا دونْ كوناردو ؟

ـ لا شيء ، يا ولدي ، لا شيء... هيّا ، اشرب... نخب حرّيّتِك!

عاوده السعالُ . كنتُ على وشك السؤال :

ـ نخب حرّيّتي ؟

لكنّه أشار إليّ بيده كيلا أقول شيئاً . حدث العكس هذه المرّة فقد انتهى السعال بالضحك .

ـ نعم . أنتم الأوغادُ محظوظون جميعاً!

كان يضحك ، سعيداً لأنّه استطاع أن يبشرني بالخبر ، فرحاً لأنّه سيستطيع أن يرفسني إلى الشارع . مسكين دون كوناردو ، كم كان طيّباً! لو عرف أنّ أفضل ما يمكن أن يحدث لي هو عدم الخروج من هناك!...

اعترف لي حين عدتُ إلى تشينتشيليا ، إلى ذلك البيت والدموع في عينيه ، في تلك العينين اللتين كانتا أكثر زرقة بقليل من الدموع .

ـ حسنٌ ، الآن بجدّية! اقرأْ...

وضع أمام عينيّ أمرَ إطلاق سراحي . لم أصدّق ما كنتُ أراه .

ـ هل قرأته ؟

ـ نعم ، يا سيّد .

فتح حقيبةً وأخرج ورقتين متماثلتين ، الإذن .

ـ خذْ ، هذا لك ؛ بهذا تستطيع أن تسير أنّى شئت... وقِّعْ هنا ، دون أن تلطخه...

طويتُ الورقةَ ووضعتها في المحفظة... أصبحتُ طليقاً! ما جال في داخلي في تلك اللحظة لن أستطيع تفسيره... تجهّم السيّد كوناردو ؛ وقذفني بعظةٍ حول النزاهة والعادات الحسنة ، أعطاني أربعَ نصائحَ حول الدوافع التي لو توفّرت لوفّرتُ على نفسي إزعاجاً كبيراً ، وحين انتهى بما يشبه نهاية حفل ، سلّمني خمساً وعشرين بيزيتا باسم " السيدات مُصلحات السجناء" مؤسّسة الإحسان التي تشكّلت في مدريد لمساعدتنا .

قرع جرساً فجاء ضابط سجون . مدّ دونْ كوناردو لي يدَه .

ـ وداعاً ، يا ولدي! يحفظ الله!

طرتُ فرحاً . التفت إلى الضابط .

ـ يا مونيوثْ ، رافق هذا السيّد إلى الباب . خذه أوّلاً إلى الإدارة ، فقد أُطلق سراحه قبل الموعد بثمانية أيامٍ .

لم أعد لرؤية مونيوث طوال أيّام حياتي . ورأيتُ دونْ كوناردو بعد ثلاث سنواتٍ ونصف .

وصل القطار توّاً ، عاجلاً أو آجلاً كلّ شيءٍ يصل في هذه الحياة ، إلاّ عفو المُهانين ، الذي يبدو وكأنّه يستمتع أحياناً بالابتعاد . ركبتُ فيه ووصلتُ بعد أن تقلّبت من جانبٍ إلى آخر خلال يومٍ ونصف إلى محطّة القرية ، المعروفة لي وبقيتُ طوال الرحلة أفكّر بمشهدها . لا أحد ، لا أحد كان يعرف بوصولي ، ما لم يكن الله في عليائه ، ومع ذلك ـ لا أدري بسبب أيّة نزوة من الأفكار ـ جاءت لحظة تصوّرت فيها الرصيفَ مليئاً بالناس

السعداء الذين يستقبلونني وأيديهم ممدودة في الهواء ، يلوّحون بالمناديل وينطقون باسمي للرياح الأربع...

حين وصلتُ انغرز بردٌ كالخنجرِ في قلبي . لم يكن في المحطّة أحد... الوقت ليل ؛ كانَ رئيسها السيد غرغِوريو قد انتهى من إخراج القطار وفي يده فانوس فتيلٍ له جانب أخضر وآخر أحمر وعلم مغمود في قلنسوة الصفيح...

سيعود إليّ الآن ، سيعرفني ويهنِّئني...

ـ ويحك! باسكوال! أنت هنا!

ـ نعم ، يا سيّد وطليقاً!

ـ جيّد ، جيّد!

دار نصف دورة دون أن يوليني انتباهاً أكثر . دخل في كشكه . أردتُ أن أصرخ له :

ـ طليق ، يا سيّد غرغِوريو! طليق!

لأنّني فكّرتُ أنّه لم ينتبه . مكثتُ لحظةً واقفاً وتراجعت عن فعل ذلك... ضرب الدمُ سمعي والدموع أوشكت أن تنهمر من عينيّ . لم تكن حرّيتي تعني السيّد غرغِوريو في شيء .

خرجت من المحطّة ورزمة أمتعتي على كتفي ، انعطفتُ في دربٍ يقود إلى الطريق الذي يقع عليه بيتي ، دون الحاجة للمرور في القرية وبدأت أمشي . كنتُ حزيناً ، ففرحتي قتلها كلّها السيّدُ غرغِوريو بكلماته البائسة وراح سيل من الأفكار المشؤومة والتنبؤات الشقيّة يُحاصر مخيلتي ولم تجدِني محاولتي إبعادها نفعاً . كان الليل صافياً ، بلا غيوم والقمر مغروزاً

مثل رغيف خبز هناك وسطَ السماء . لم أبغ التفكير بالبرد الذي غزاني...

إلى الأمام قليلاً وعلى يمين الدرب ، عند منتصف الطريق كانت المقبرة ، في المكان ذاته الذي تركتها فيه بسياج الخفان الضارب إلى السواد ذاته وشجرة سروها ، التي لم يتبدل فيها شيء ، وبومتها الصافرة بين أغصانها . المقبرة التي يرتاح فيها أبي من حنقه وماريو من براءته وزوجتي من هجراني لها والممطوط من صلفه الكثير . المقبرة التي تفسد فيها جثتا ولديَّ ، جثّة المُجهَض وجثّة باسكوال الصغير ، الذي صار في شهوره الأحد عشر شمساً... أحدثَ وصولي هكذا وحيداً إلى القرية ومروري أوّلاً بأوّل بالمقبرة حرقةً في نفسي! بدا وكأنّ العناية الإلهية تُسَرّ بوضعها أمامي وتفعل ذلك قصداً كي تجبرني على الوقوع في التأمل بضحالتنا! كان ظلّي يمضي دائماً أمامي ، طويلاً ، طويلاً جداً ، طويلاً مثل شبح ، ملتصقاً بالأرض ، يتبع الأرض ، مرّة يمضي مستقيماً في الطريق ثمّ يتسلّقُ سياجَ المقبرة . جريتُ قليلاً فجرى الظلّ . وقفتُ فوقفَ الظلّ أيضاً . انتابني خوف ، خوف غامض ؛ تخيّلتُ الموتى يخرجون هياكلَ ليروني أمرُّ . بدا لي جسدي بلا وزن ، والصندوق أيضاً... في تلك اللحظة بدوت أكثر قوّة من أيّ وقت مضى... جاءت لحظة كنتُ أعدو فيها مثل كلبٍ هاربٍ ، أركض وأركض مثل مجنون ، مثل جامح ، مثل ممسوس . وحين وصلتُ إلى بيتي كنتُ منهكاً ، لم يكن باستطاعتي أن أخطو خطوة واحدة أكثر...

وضعتُ الحمل على الأرض ، جلستُ فوقه . لم يكن يُسمع أيّ صوت ؛ لا بدّ أنّ روساريو وأمي نائمتان ، بكلّ تأكيد ، لا علاقة لهما بوصولي ، بحرّيتي وأنا على بعد خطوات قليلة منهما . من يدري ما إذا كانت أختي قد صلّت ـ صلاتها المُحبّبة إليها ـ لحظةَ دخولها في الفراش كي يطلقوا سراحي!

من يدري ما إذا كانت لا تحلم حزينةً بمأساتي في تلك اللحظة ، وتتصوّرني مستلقياً على ألواح الزنزانة أُفكّرُ بها وهذه هي العاطفة الصادقة الوحيدة التي ملكتها في حياتي! ربّما كانت فزعة ، أسيرةَ كابوس... وأنا هناك ، هناك ، طليق ، سليم مثل تفاحة ، جاهز كي أبدأ من جديد ، كي أواسيها ، أنظر إليها وأتلقى ابتسامتها...

لم أعرف ما أفعل ، فكّرت أن أطرق الباب... ستخافان ؛ فلا أحد يطرق في مثل هذه الساعة . ربّما لن تَجْرُآ عل فتح الباب... لكنّهما لن تستطيعا الاستمرار هناك ، أيضاً لا يمكن الانتظار حتى الصباح فوق الصندوق...

في الطريق كان هناك رجلان قادمين يتحدثان بصوت مرتفع ؛ كانا شاردين ، ويبدوان سعيدين ، آتيين من ألمندرالِخو ، من يدري ما إذا كان من زيارة الخطيبتين . سرعان ما عرفتهما . كانا لثون ، أخو مارتينتِز والسيّد سِباستيان . اختبأتُ . لا أدري لماذا ، لكنّ رؤيتهما أربكتني .

مرّا قريبين جداً من البيت ، قريبين جداً منّي ، كان حديثهما في غاية الوضوح .

ـ هاأنت ترى ما جرى لباسكوال .

ـ ولم يفعل إلا ما كنّا سنفعل نحن .

ـ الدفاع عن الزوجة .

ـ طبعاً .

ـ وهو في تشينتشيليا ، على بعد أكثر من يوم بالقطار ، دخل العام الثالث...

شعرت بفرحة عارمة ، مرّت فكرة خروجي ، مثولي أمامهما ، معانقتهما

في خيالي مثل صاعقة... لكنّني فضّلتُ ألاّ أفعل ففي السجن جعلوني أكثر هدوءاً ، انتزعوا منّي اندفاعاتي...

انتظرتُ ابتعادهما وحين قدّرت أنهما أصبحا بعيدين كفايةً خرجت من مخبَئي ومضيت إلى الباب . كان الصندوق هناك . لم يرياه . لو رأياهُ لاقتربا ولكان عليَّ أن أخرج لأشرح لهما الأمرَ ولو اعتقدا أنّني اختبأت لهربا...

لم أبغِ التفكير بالأمر أكثر ، اقتربتُ من الباب وطرقته طرقتين . لم يجبني أحد ؛ انتظرت عدّة دقائق . لا شيء . عدتُ وطرقتُه هذه المرّة بقوّة أكبر . اشتعل قنديلٌ في الداخل .

ـ من!

ـ أنا!

ـ من ؟

كان صوت أمّي . شعرت بالسعادة لسماعه . فلماذا الكذب .

ـ أنا باسكوال .

ـ باسكوال ؟

ـ نعم ، يا أمّي ، باسكوال!

فتحت البابَ ، بدت تحت ضوء القنديل مثل ساحرة .

ـ ماذا تريد ؟

ـ كيف ماذا أريد ؟

ـ نعم .

ـ الدخول . ماذا سأريد ؟

كانت غريبة . لماذا تعاملي بهذه الطريقة ؟

ـ ماذا بك ، يا أمّي ؟

ـ لا شيء ، لماذا ؟

ـ لا لشيء ، لكن وبما أنّني رأيتك جامدة!

أميل إلى التأكيد بانّ أمي كانت تفضّل ألاّ تراني . فكراهية أيّام زمان تبدو وكأنها تريد أن تأسرني . حاولتُ أن أبعدها . أرمي بها جانباً .

ـ وروساريو ؟

ـ ذهبت .

ـ ذهبت ؟

ـ نعم .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى ألمِندرالِخو .

ـ مرّة أخرى ؟

ـ مرّة أخرى .

ـ متورّطة ؟

ـ نعم .

ـ مع من ؟

ـ وماذا يهمّك أنت ؟

بدا كأنّ العالم كلّه يريد أن يسقط فوق رأسي . لم أكن أرى جيّداً . فكّرت فيما إذا كنتُ لا أحلم . بقينا برهة صامتين .

ـ ولماذا ذهبت ؟

ـ هاأنت ترى .

ـ ألم تكن تريد أن تنتظرني ؟

ـ لم تكن تعرف ما سيأتي . كانت دائمة الحديثِ عنك...

مسكينة روساريو ، يا للحياة البائسة التي تعيشها على الرغم من طيبتها!

ـ هل نقصكم طعام ؟

ـ أحياناً .

ـ وهل رحلت لهذا السبب ؟

ـ من يدري!

عدنا لنلزم الصمت .

ـ هل ترينها ؟

ـ نعم ، فهي تتردّد عليّ وبما أنّه هو هنا أيضاً!

ـ هو ؟

ـ نعم .

ـ من هو ؟

ـ السيّد سِباستيان .

اعتقدت أنّني أموت... كنتُ أفضّل أن أدفع مالاً لأرى نفسي في السجن...

١٨

ما إن سمعت روساريو بعودتي حتى جاءت لرؤيتي .

ـ البارحة علمت بعودتك . لاتعرف كم سُعدتُ!

ـ نعم ، أعرف ، يا روساريو ، أتصوّر ذلك . أنا أيضاً كنت مشتاقاً للعودة لرؤيتك!

بدا وكأننا في مجاملة ، كما لو أنّنا لم نعرف بعضنا بعضاً إلا منذ عشر دقائق . كلانا يجهد نفسه كي تخرج الأمور طبيعية . سألتها ، بعد برهةٍ ، لمجرّد السؤال :

ـ كيف حدث ورحلتِ مرّة أخرى ؟

ـ هاأنت ترى .

ـ إلى هذا الحدّ كنت متضايقة ؟

ـ كفاية .

ـ ولم تستطيعي الانتظار ؟

ـ لم أبغ...

احتدم صوتها .

ـ لم أرغب في أن أمرّ بمزيد من المصائب ...

تفهّمتُها ؛ المسكينة مرّت بما يكفي...

ـ دعنا من الكلام عن هذا ، يا باسكوال .

كانت روساريو تبتسم ابتسامتها المعتادة دائماً ، تلك الابتسامة الحزينة ، شبه المنهكة التي لكلّ البائسين طيّبي الأعماق .

ـ لننتقل إلى موضوع آخر... هل تدري أنّني بحثت لك عن خطيبة ؟

ـ لي ؟

ـ نعم .

ـ خطيبة ؟

ـ نعم ، يا رجل! لماذا ؟ هل تستغرب ؟

ـ لا... يبدو لي غريباً . من ستحبّني ؟

ـ أيّ واحدة . أم أنّني لا أحبُّكَ أنا ؟

أسرّني اعترافُ أختي بودّها لي ، مع أنّني كنت أعرف ، وكذلك اهتمامها بالبحث لي عن خطيبة . يا لها من فكرة!

ـ ومن تكون ؟

ـ حفيدة السيّدة إنغراثيا .

ـ اسبِرانثا!

ـ نعم .

ـ فتاة جميلة!

ـ تحبُّكَ منذ ما قبل زواجك .

ـ وقد صمتت على الأمر جيّداً!

ـ وماذا تريد... كلٌّ واحدة كما هي!

ـ وأنتِ ماذا قلتِ لها ؟

ـ لا شيء ؛ إنّك ستعودُ ذات مرّة .

ـ وعدتُ...

ـ الحمد لله!

كانت الخطيبة التي أعدّتها لي روساريو جميلة فعلاً . لم تكن من نوع لولا ، بل على العكس ، كانت وسطاً بينها وبين زوجة إستيبِثْ . بل ـ إذا ما أُمعن النظر بها جيّداً ـ . تشبه في شكلها أختي . كانت تُقارِب في ذلك الوقت الثلاثين أو الثانية والثلاثين من عمرها . لا تظهر عليها ، فهي شابة ومحتفظة بشبابها كما يبدو . كانت شديدة التديّن ، وتميل إلى التصوّف ، الشيء الغريب في تلك المنطقة ، تسلم قيادها للحياة مثل الغجر وتركّز فكرها دائماً على ذلك الشيء الذي كانت تقوله :

ـ لماذا التبدّل ؟ كلّ شيءٍ مكتوب!

كانت تعيش على الرابية مع عمّتها ، السيّدة إنغراثيا ، أخت المرحوم أبيها من أبيه ، وبما أنّها يتيمة الأبوين منذ نعومة أظفارها وذات طبيعة كتوم مع شيء من الخجل فليس باستطاعة أحدٍ أن يقول إنّه رآها أو سمعها تناقش أحداً ، خاصّة عمّتها التي تكنّ لها احتراماً كبيراً . قليلات من كنّ بنظافتها ، ولها لون التفاح ذاته وحين أصبحت زوجتي ـ زوجتي الثانية ـ ، كان عليها أن ترتب بيتي في كثيرٍ من تفاصيله بحيث لم يكن باستطاعة أحد أن يعرفه .

المرّة الأولى التي واجهتها بالأمر ، الأمر الذي لم يخلُ من العنف

بالنسبة للاثنين ؛ كلانا كان يعرف ما سيقوله ، كلانا نظر إلى الآخر بطرف عينه ، كأنّه يريد أن يتجسّس على حركاته... كنّا وحيدين ، لكن كان سيّان ، مضى علينا وحيدين ساعة وكلّ لحظة تمر يبدو كأنّ البدء بالحديث سيكلّف كثيراً من الجهد . هي من فجّرت النار :

ـ تأتي أكثر بدانة .

ـ ممكن...

ـ ووجهك أكثر نصوعاً .

ـ هذا ما يقولونه...

كنتُ أجهدُ نفسي كي أظهر لطيفاً وحاسماً ، لكنني فشلتُ ؛ كنت كأنّني متبلّدٌ ، مسحوقٌ بثقلٍ يخنقني ، أحتفظ منه بذكرى هي واحدة من ألطف انطباعات حياتي ، واحدة من أكثر الانطباعات التي آلمني ضياعها كثيراً .

ـ كيف تلك البلاد ؟

ـ سيّئة .

كانت متفكّرة... من يعلم بماذا كانت تفكّر!

ـ هل تذكّرت لولا كثيراً ؟

ـ أحياناً . لماذا الكذب ؟ بما أنّني كنتُ أقضي اليوم بالتفكير ، كنت أتذكّر كلّ شيء... حتى الممطوط نفسه ، هاأنت ترين .

شحبت إسبرانثا قليلاً .

ـ يسعدني جداً أنّك عدتَ .

ـ نعم ، يا إسبِرانثا ، أنا أيضاً سعيد لأنّكِ انتظرتني .

ـ انتظرتك ؟

ـ نعم . أم أنَك لم تنتظريني ؟

ـ من قاله لك ؟

ـ هاأنت ترين! كلّ شيءٍ يُعرَف!

كان صوتها يرتعد وارتعاده على وشك أن يصيبني بالعدوى .

ـ هل هي روساريو ؟

ـ نعم . ما السيئ الذي ترينه في الأمر ؟

ـ لا شيء...

أطلّت الدموع من عينيها .

ـ ماذا تراك فكّرت أنّني ؟

ـ وماذا تريدينني أن أفكّر ؟ لا شيء!

اقتربتُ ببطء وقبّلتُ يديها . تركتني أقبلهما .

ـ أنا حرّ مثلك ، يا إسبِرانثا .

... ...

ـ حرّ كما كنت في العشرين من عمرك .

كانت إسبِرانثا تنظر إليّ بحياء .

ـ لستُ عجوزاً ، ويجب أن أفكّر بالحياة .

ـ نعم .

ـ في تدبّر عملي ، بيتي ، حياتي... هل حقّاً أنّك انتظرتني ؟

ـ نعم .

ـ ولماذا لا تقولينه لي ؟

ـ ها قد قلته .

كان صحيحاً ، فقد قالته لي . لكنّني كنتُ أتمتّع بحملها على تكراره .

ـ قوليه لي مرّة أخرى .

احمرّت إسبِرانثا ، مثل فلفل أحمر . كان صوتها يخرج كأنّه متقطّع وشفتاها وخُنّابتا أنفها تهتزان مثل أوراق تحرّكها النسمةُ مثل ريش حسّون ينتفش في الشمس...

ـ كنتُ أنتظرك ، يا باسكوال ، وأصلّي كلّ يومٍ كي تعود سريعاً . واستجاب اللهُ لي...

ـ صحيح .

عدتُ وقبّلتُ يديها . كنتُ كأنّني مُطفأٌ... لم أجرؤ على تقبيلها في وجهها...

ـ هل تريدين... هل تريدين ؟

ـ نعم .

ـ هل تعرفين ما كنتُ سأقول ؟

ـ نعم . لا تتابع .

صارت فجأةً مشعّة مثل فجر .

ـ قبّلني ، يا باسكوال...

تبدّل صوتها ، صار كأنّه مقنّع ، فاحش .

ـ انتظرتك طويلاً!

قبَلتها باضطرام ، بشدّة ، بودٍّ واحترام لم أستخدمهما مع امرأة قط ، وطويلاً طويلاً حتى أنّني حين أبعدتُ عنها فمي بدا أكثر الودّ وفاءً عليَّ .

١٩

كان قد مضى على زواجنا شهران حين انتبهت إلى أنّ أمّي ما تزال تمارس نزواتها وفنونها الخبيثة السابقة على سجني . كانت تحرقُ دمي بحركتها ، الفظّة دائماً والخشنة ، بحديثها الجارح والمقصود دائماً ، بنبرة صوتها التي تستخدمها حين تكلّمني ، المزيفة والمصطنعة مثلها كلّها . زوجتي ، التي كانت تتسامح معها ـ ماذا بيدها ؟ ـ لم تكن تستطيع أن تراها ولا في الصورة ، ولم تخفِ كرهها لها حتى جاء يوم كانت مشحونة فيه أكثر من اللازم فطرحت عليّ أسبِرانثا الأمر بطريقةٍ استطعت أن أرى أنّه ما من حلّ إلاّ توسّط الأرض بينهما . يُقال توسّط الأرض حين ينفصل اثنان في قريتين بعيدتين ، لكن إذا ما تمعّنا في الأمر جيّداً أمكن القول : حين يفصل بين الأرض التي يدوسها واحد منهما وبين الآخر الذي ينام فيها عمق عشرين قدماً...

دارت فكرة الهجرة في رأسي كثيراً ، فكّرت بـ لاكورونيا ، أو مدريد ، أو أقرب باتجاه العاصمة ، لكنّ المسألة أنّني ـ من يدري ما إذا كان جبناً ، أو بسبب غياب التصميم ـ رحتُ أؤجل المسألة ، أؤجّلها إلى حدّ أنّني حين انطلقت للسفر ، ليس مع أحد آخر غير لحمي ذاته ، أو ذكرياتي ذاتها ،

وددتُ لو تتوسّط الأرض بيننا... لم تكن الأرض كبيرة كفاية للهرب من خطيئتي... الأرض التي لم تملك من الطول ولا من العرض ما يكفي للتغيير أمام صوت ضميري ذاته... وددت لو أوسِّط الأرض بيني وبين ظلّي ، بين اسمي وذكرايَ وبيني ، بين جلدي وبيني أنا نفسي ، هذا الأنا الذي إذا ما نزعنا عنه الظلّ والذكرى والاسم والجلد ، لم يبق منه إلاّ القليل .

هناك مناسبات يفضّل المرءُ أن يَتلاشى فيها كالميت ، أن يختفي فجأة كما لو أنّ الأرض ابتلعته ، أن ينحلّ في الهواء مثل عمود الدخان... المناسبات التي لا يحصل عليها ، لكن إذا ما حصلنا عليها حوّلتنا إلى ملائكة ، جنّبتنا الاستمرار عالقين في وحل الجريمة والخطيئة ، وحرّرتنا من صابورة اللحم الملوث ، التي أؤكّد لك ، لن نعود لتذكّرها أبداً ـ ما أهول ما ينتابنا من رعب ـ إلا إذا أخذ أحدٌ ما على عاتقه أمرَ تذكيرنا بها ، أحدٌ يهتمُّ بذرِّ نفاياته كي يخدش حاسّة شمّ الروح في روحنا... لا شيء ينتن مثل ولا أسوأ من البرص الذي يُخلّفه الشرّ المنقضي في ضميرنا ، مثل ألم الغرق في الشرّ الذي ، ما إن نولدَ ، حتى يفسد مستودعَ عظام آمالنا الميتة ، الشرّ الذي هو ـ منذ زمن بعيد جداً ـ حياتنا البائسة!...

فكرة الموت تصل دائماً بخَطوِ الذئب ، وزحفِ الأفعى ، مثل كلّ الأفكار المغرقة في الشرّ . فالأفكار التي تشوّشنا لا تصل أبداً فجأة . فالمُفاجئ يخنقنا للحظاتٍ ، لكنّه يترك لنا ، حين يرحل ، حياة مديدة . الأفكار التي تسبّب لنا أسوأ جنون ، جنون الحزن . دائماً تصل شيئاً فشيئاً ، كما لو دون أن نُحَسّ بها ، تماماً كما يغزو الضباب الحقولَ دون أن نُحسّ به ، أو السلّ الدرني الصدرَ... يتقدّم مشؤوماً ، دون كللٍ ، لكن ببطء ، وتؤدة وانتظام مثل النبض . لا نلحظه اليوم ، ربّما ولا غداً ، لا بعد غد ولا بعد

شهر كامل . لكن ينقضي الشهرُ ونبدأ نشعر بالطعام مراً ، والتذكّرِ مؤلماً ؛ لقد لدغنا . ومع مرور النهارات والليالي نصبح أفظاظاً ومنعزلين ، تُطبخ الأفكارُ في رؤوسنا ، الأفكار التي ستجعلهم يقطعون رؤوسنا التي طُبِخت فيها ، من يدري ما إذا كان من أجل منعها من الاستمرار بارتكاب العمل الشنيع . ربّما قضينا أسابيعَ بكاملها لا نتبدّل ، فالذين يحيطون بنا اعتادوا على تجهّمنا وما عادوا يستغربون كائننا الغريب . لكنّ الشرّ يكبر ذات يوم ويتضخّم كالأشجار ، فلا نعود نحيي الناسَ فيشعرون بنا غريبي الأطوار ، كالعشاق . نبدأ نَنْحَلُ ويزداد ارتخاء ذقننا كل يوم . نبدأ نشعر بالكراهية التي تقتلنا ؛ فلا نعود نتحمّل النظرةَ ، يؤلمنا وعينا ، لكن لا يهم! الأفضل أن يؤلِمَنا! تحرقنا عيوننا ، التي تمتلئ بماءٍ سامٍّ حين ننظر بقوّة . يلاحظ العدو لهفتنا ، لكنّه مطمئن ؛ الغريزة لا تكذب . الفاجعة سعيدة ، مريحة ونتمتّع بجرجرة أرقّ المشاعر في ساحة الزجاج الواسعة التي تصير إليها روحنا… وحين نهرب مثل يحمور ، حين تُفزِعُ الكِراهية أحلامَنا ، نكون قد لُغِّمنا بالشرّ فينتفي الحلّ ، التسوية الممكنة . نبدأ بالسقوط ، شاقولياً كيلا نعود ونتصب في الحياة… ربّما لننتصب قليلاً في الساعة الأخيرة ، قبل أن نسقطَ على رؤوسنا في الجحيم… شيء سيِّئ .

كانت أمّي تشعر برضى لجوج عن إغوائها لميولي ، التي راح الشرُّ ينمو فيها مثل الذباب حول رائحة الموتى . الصفراء التي جرعتُها سمّمت قلبي واعتمل بداخلي من الأفكار الشرّيرة ما جعلني أخاف من جرأتي ذاتها . لم أكن أريد حتى رؤيتها ، كانت الأيام تمرّ متشابهةً ، لها الألم ذاته المغروز في أحشائي ، نذرُ العذاب ذاتها التي تغشى نظري…

يومَ قرّرت استخدام الحديد كنت من الضيق ، من اليقين بأنّ عليّ أن

أدمي الشرَّ ، بحيث لم تُزعزع فكرة قتل أمي نبضيَ قيدَ شعرة . كان شيئاً مشؤوماً يجب أن يأتي ، كان آتياً وأنا من سيقوم به ، لا أستطيع تفاديه حتى ولو أردتُ ، فقد بدا لي محالاً تغيير رأيي ، تراجعي وتفادي ما أضحى بيدي كيلا يحدث ، لكنني كنتُ أتمتّع بإثارته على الأقل بالدرجة ذاتها وبالتأمل ذاته اللذين قد يستخدمهما فلاح للتفكير بحقول قمحه...

كلّ شيء كان مُحَضَراً بإتقان ، قضيت لياليَ طويلة بكاملها أفكّرُ في الشيء ذاته لأتجرأ ، لأستجمع قواي ؛ شحذتُ سكينَ الجبلِ ، بنصلها الطويل والعريض ، الذي يشبه أوراق الذرة ، بأخدودها الذي يخترقها ، بجانبيها اللذين من صدف ويمنحانها مظهرَ التحدي... لم يبق وقتذاك إلاّ تحديد التاريخ ، فلا يحدث التردّد ، لا يتم التراجع ، ويتم الوصول إلى النهاية مهما كلّف الأمر ، الحفاظ على الهدوء... ثم الجرح ، الجرح دون ندم ، بسرعة والهرب ، الهرب بعيداً ، إلى لاكورونيا ، الهرب إلى حيث لا أحد يعرف أين ويسمح لي بالعيش بسلام بانتظار نسيان الناس ، النسيان الذي يسمح لي بالعودة كي أبدأ العيشَ من جديد... لن يؤنّبني ضميري ، لا داعيَ للندم . فالضمير لا يؤنّب إلا عند ارتكاب الظلم : ضرب الأطفال ، رمي سنونو... لكنّ الأعمال التي تقودنا إليها الكراهية ، ونمضي إليها كأننا منوَّمون بفكرة تسيطر على عقولنا ، يجب ألاّ نندم عليها أبداً ، لأنّ ضميرنا لن يؤنّبنا أبداً .

كان ذلك يوم ١٢ شباط ١٩٢٢ . وقد صادف ذلك الثاني عشر من شباط من ذلك العام يوم جمعة . كان الطقس صحواً كما هو طبيعي أن يكون في البلد ، والشمس تُشكَرُ ويوجد في الساحة ، كما يبدو لي أنّني أتذكّر ، أطفال أكثر من المعتاد بكثير ، يلعبون البِلْية والكعب . فكّرت بذلك

كثيراً ، لكنّني حاولت أن أنتصر على نفسي واستطعت . صار التراجع مُحالاً ، ولو حدث لكان شؤماً بالنسبة إليَّ ، ولَحَمَلني إلى الموت ، من يدري قد يكون إلى الانتحار ، ولانتهيت إلى أن أجد نفسي في قاع نهر الغواديانا ، تحت عجلات القطار... لا ، لم يكن التراجعُ ممكناً ، يجب المضيّ إلى الأمام ، دائماً إلى الأمام ، حتى النهاية . صارت المسألة تتعلّق بحبّي لذاتي .

لا بدّ أنّ زوجتي لاحظت شيئاً .

- ماذا ستفعل ؟

- لا شيء ، لماذا ؟

- لا أدري ، تبدو لي غريبَ الطور .

- أشياء تافهة!

قبّلتها كي أطمئنها . إنّها آخر قبلة منحتُها لها . كم كنتُ بعيداً عن معرفة ذلك عندئذٍ! لو عرفت لأخذتني قشعريرة...

- لماذا تُقبّلني ؟

جمّدتني .

- لماذا سأقبّلك ؟

جعلتني كلماتها أفكّر كثيراً . بدا كأنّها تعرف كلّ ما سيحدث . كما لو أنّه في نهاية الشارع .

غابت الشمسُ ، كما في كلّ يوم ، عبر المكان ذاته . جاء الليل... تناولنا العشاء... دخلتا في فراشيهما... بقيتُ ، كما هي العادةُ دائماً ، ألعبُ بجمر الموقد . زمنٌ مضى لم أذهب فيه إلى حانة مارتينيتِ .

كانت الفرصةُ قد حانت ، الفرصة التي طالما انتظرتُها ؛ ولا بدّ من التغلّب على الخوف ، الانتهاء بأسرع ما يمكن ؛ فالليل قصير وكلّ شيء يجب أن يحدث في الليل وعلى الفجر أن يباغتني على بعد فراسخ كثيرة عن القرية .

بقيت أصغي برهةً طويلة . لا شيء يُسمَع . ذهبتُ إلى غرفة زوجتي ، كانت نائمة ، تركتها تتابع نومها . أميَ بالتأكيد كانت نائمة أيضاً . عدتُ إلى المطبخ ، خلعت حذائي ، الأرض باردة وحجارة الأرضية تنغرز في أخمص قدميّ . جرّدتُ السكينَ ، التي راحت تلمع في ضوء اللهب مثل الشمس ، من غمدها...

كانت هناك مستلقية تحت الملاحف ووجهها ملتصق تماماً بالوسادة . لم يكن عليّ غير أن أرمي نفسي فوق الجسد وأطعنه . لن تتحرّك ، لن تصرخ صرخة واحدة . لن أمنحها فرصة لذلك... فهي في متناول ذراعي ، وتنام بعمق كبير ، جاهلةً ـ يا إلهي كم يجهل المغدورون دائماً قدرهم! ـ كلّ ما كان سيحدث لها ، أردت أن أقرّر ، ولم أستطع ، حدث أن رفعتُ ذراعي ، لكنّها عادت وارتخت مرّة أخرى على طول جسدي .

فكّرتُ أن أغمض عينيّ وأطعنها . لا يمكن ، أن تطعنَ مغمضَ العينين ليس طعناً . كان عليّ أن أطعنها مفتوحَ العينين تماماً وحواسي الخمس في الطعنة . عليّ الحفاظ على رباطة جأشي ، استعادة رباطة جأشي التي بدا كأنّها أخذت تتلاشى أمام منظر جسد أمّي... الوقت يمضي ولم أُقرّر بعد الانتهاء . لم أجرؤ ، فهي بعد كلّ حسابٍ أمّي ، المرأة التي أنجبتني ، الوحيدة الذي عليّ أن أعفو عنها... لا ، لا أستطيع العفوَ عنها لأنّها أنجبتني . فهي بقذفي إلى العالم لم تعمل معي أيّ معروف ، على الإطلاق ، لم تعمل

معي أيّ معروف... لم يكن هناك وقت لأضيعه . كان عليّ أن أحسمَ أمري وأنتهي ... جاءت لحظات وقفتُ فيها كأنّني نائم والسكين في يدي مثل صورة الجريمة... حاولتُ التغلبَ على نفسي ، استعادةَ قواي ، تركيزها . صرتُ أضطرمُ رغبة في الانتهاء سريعاً ، سريعاً جداً والخروج راكضاً إلى أن أسقط منهكاً في أيّ مكان . كنتُ أستنفد نفسي . فقد مضت عليّ ساعة طويلة بجانبها ، كأنّني أحرسها ، أسهر على حلمها ، أنا الذي ذهبت لقتلها ، لتصفيتها ، لنزع روحها طعناً بالسكين!...

ربّما مرّت ساعة أخرى . لا . إطلاقاً لا . لا أستطيع . كان شيئاً يفوق قوّتي ، شيئاً يخبط دمي . فكّرتُ بالهرب . لكن قد أُحدث ضجّة عند خروجي ، فتستيقظ وتعرفني . لا ، الهرب لا أستطيع الهرب . كنتُ حتماً في طريقي إلى الدمار... لم يبق أمامي حلٌ غير ضربها ، ضربها بسرعة ، بلا رحمة ، كي أنتهي بأسرع ما يمكن... لكنّني أيضاً لم أكن أستطيع الضربَ . كنت متورطاً كما لو في أرض موحلة حيث أغوص ، شيئاً فشيئاً ، دون ملاذٍ ، دون مخرج ممكن... الوحل يصل حتى رقبتي ، سأموت خنقاً مثل قطّ... صار من المحال عليّ أن أقتل ، كنت كأنّني مشلول...

درتُ كي أذهب . كانت الأرض تطقطق . تململت أمّي في السرير .

ـ من هناك ؟

وعندئذٍ فعلاً لم يبق حلّ .هويتُ فوقها وثبّتها ، قاومت ، انزلقت . وجاءت لحظة أخذتني فيها من عنقي . راحت تصرخ مثل ملعونة . تصارعنا ؛ إنّها أفظع معركة يمكنك تصوّرها . زمجرنا مثل بهائم ، واللعاب سال من فمينا... وفي إحدى الدورات رأيتُ زوجتي ، بيضاء مثل ميتة ، واقفة في الباب دون أن تجرؤ على الدخول . جاءت بقنديل في يدها ، القنديل الذي

استطعتُ في ضوئه أن أرى وجهَ أمّي ، بنفسجياً مثل ثوب نصريَ... تابعنا عراكنا ، جاءت لحظة تمزّقت فيها ثيابي وانكشفَ صدري ، الملعونة كانت أقوى من شيطان . اضطررت أن أستخدم كلّ رجولتي كي أثبّتها . ثبّتها خمس عشرة مرة وخمس عشرة مرّة انزلقت . كانت تخدشني ، ترفسني ، تلكمني وتعضّني . جاءتْ لحظة التقطتْ فيها حلمتي - اليسرى - بفمها فاقتلعتها من جذورها لحظةَ تمكّنت فيها من غرز النصل في حنجرتها...

انبثقَ الدمُ فوّاراً فأصابني على وجهي . كان حارّاً مثل بطنٍ وله طعم دم الخراف...

أفلتها وخرجتُ هارباً . اصطدمت بزوجتي ، فانطفأ القنديل . تسلمتُ الحقل ورحت أركضُ وأركض ساعاتٍ بكاملها دون راحة . كان الحقل طرياً فجرى في عروقي إحساس يشبه السكينة...

صار باستطاعتي أن أتنفّس...

ملاحظة أخرى للناسخ

إلى هنا تنتهي الأوراق المخطوطة لباسكوال دوارتِ . إذا كتبها متتالية ، أو ملك وقتاً لكتابة مآثر أخرى وضاعت ، فهو ما لم أستطع تبيّنه ، على الرغم من كلّ ما فعلته .

المجاز السيد بنيغنو بونيليا ، صاحب صيدلية ألمِندارلِخو حيث عثرتُ ، كما سبق وقلت ، على ما تركته منسوخاً ، منحني كلّ التسهيلات للاستمرار في البحث . قلّبت الصيدلية كما أقلّب جورباً ، نظرت حتى في الأواني الخزفية ، وخلف القوارير ، فوق ـ وتحت ـ الخزائن ، في درج البكاربونات ... تعلّمتُ أسماء جميلة ـ مرهم ابن ثاكارياس والخباز والحوذي ، السمكة والراتينج ، خبز الخنزير ، عنبية الغار ، عنبية الإحسان ومضاد مغص الأغنام ـ سعلتُ من الخردل ، سبّبت لي حشيشة القطّة هواعاتٍ وأدمعَ النشادرُ عينيَّ ، لكن رغم كلّ ما قمت به والصلوات التي صلّيتها لِـ سان أنطونيو كي يضع شيئاً في متناول يدي ، شيئاً يبدو أنه لم يكن موجوداً ، لأنّني لم أعثر عليه إطلاقاً .

شكّلَ هذا الغياب المطلق للمعلومات عن السنوات الأخيرة لباسكوال

دوارتِ تناقضاً غير قليل . ما يبدو جليّا بشيءٍ من التقدير غير الصعب هو أنّه عاد إلى سجن تشينتشيليا (يُستخلص هذا من كلماته ذاتها) حيث يجب أن يكون قد مكث حتى عام ١٩٣٥ ، أو من يدري ما إذا كان حتى ١٩٣٦ . طبعاً ، يبدو مستبعداً أن يكون قد خرج قبل بداية الحرب . ما ليس هناك طريقة إنسانية للتحقق منه هو عمله خلال ثورة الخمسة عشر يوماً التي عاشتها قريته ؛ إذا استثنينا اغتيال السيّد غونثالِثْ دِ لا رّيبا ـ الذي ثبت أنه قامَ به باعترافه هو نفسه ـ فإنّنا لم نستطعِ أن نعرف عنه أيَّ شيءٍ ، أيّ شيء على الإطلاق ؛ حتى عن جريمته ، صحيح أنّنا نعرف عنها ما لا يصلح وما هو واضح ، لكنّنا نجهل لماذا عزم باسكوال على الأمر ولم ينطق إلا حين خطر له ذلك وكان لمرّات قليلة جداً بكلمة عن دوافعه وبواعثه لارتكابها . ربّما كان سيصل في مذكراته إلى هذه النقطة ويتوسّع بها لو أُرجئ إعدامُه ، لكنّ الأكيد أنّ الفجوة التي ظهرت في أيامه الأخيرة ، نظراً لأنّ إعدامه لم يُرجأ ، لا يمكن أن تمْلأ إلا على أساس الحكايات والخرافات ، الحل الذي لا تقبله مصداقية هذا الكتاب .

يبدو أنّ رسالة باسكوال دوارتِ إلى السيّد خواكينْ بارّرا قد كُتِبت في مرحلة الفصلين الثاني عشر والثالث عشر ، وهما الفصلان الوحيدان اللذان استخدم في كتابتهما حبراً بنفسجياً مماثلاً للمستخدم في رسالته للسيّد المذكور . وهو ما يبرهن على أنّ باسكوال لم يوقف روايته نهائياً ، كما يقول ، وإنّما جهّز الرسالةَ بحساب دقيق كي يتدفق في الوقت المناسِب ، هذا الحذر الذي يقدّم لنا شخصيتنا ليس كنسّاء ولا كأحمق ، كما يبدو للوهلة الأولى . وما هو واضح تماماً ، يقوله لنا هو الطريقة التي نقلت بها رزمة الأوراق من سجن باداخوث (بطليوس) إلى بيت السيّد بارّرا في مريدا لأنّ ثِسارئو مارتين الرقيب في الحرس المدني ، الذي كان تلقّى التكليف ، يقوله لنا .

وفي جهد مني كي أوضّح اللحظات الأخيرة لشخصيتنا قدَر المستطاع توجّهتُ برسالة إلى السيّد ساتتياغو لورونِيا قسيس السجن آنذاك وراعي كنيسة ماغائِلا (باداخوث) اليوم والسيّد ثِيسارئو مارتين ، عنصر الحرس المدني العامل آنذاك في سجن باداخوث والعريف في موقع لا بِثيليا (ليون) اليوم وكان كلاهما بحكم وظيفته قريباً من المجرم حين جاءه الدور ليدفع مستحقاته للعدالة .

وها هي رسائله :

ماغاثِلا (باداخوس) ٩ كانون الثاني ١٩٤٢ .

سيدي الموقّر والأكرم :

تلقيت في هذه اللحظات وبتأخر واضح ، رسالتك اللطيفة المؤرخة في ١٨ شهر تشرين الثاني الماضي مرفقة بالثلاثمئة وتسع وخمسين ورقة مكتوبة على الآلة الكاتبة والتي تشكّل مذكرات البائس دوارتِ . أرسلها كاملة إلى السيّد دافيد فريِرو أنغولو ، قسيس سجن باداخوث الحالي ورفيق خادمكم خلال سنوات الصبا في المعهد اللاهوتي في سلمنكا . أريد أن أريح ضميري ، بكتابة هذه الكلمات ما إن فتحت الظرفَ كي أترك للغد ، إن شاء الله ، المتابعة ، بعد أن قرأت الرزمة التي ترافقني متبعاً تعليماته وفضولي .

(أتابع العاشرة)

انتهيت من قراءة اعترافات دوارتِ دفعة واحدة على الرغم من أنّها ـ بحسب هيرودوت ـ ليست قراءة نبيلة ، ولا يمكن أن تتصوّر الانطباع العميق والجرح الدائم الذي خلّفته في روحي . بالنسبة لخادم ، يتلقى آخر كلمات التوبة بالمتعة ذاتها التي يتلقى بها الفلاحُ أكثرَ غلاله ذهبيةً ، لا

يمكن لقراءة ما كتبه هذا الرجلُ إلا أن تولّد انطباعاً قاسياً ، هذا الرجل الذي ربّما تصورّتْهُ الأغلبية ضبعاً (كما تصوّرته أنا نفسي حين استدعيتُ إلى زنزانته) على الرغم من أنّه عند الوصول إلى أعماق روحه ليس إلا خروفاً وديعاً محبوساً ومذعوراً من الحياة ، فلا يعود كذلك .

كان موته تحضيراً نموذجياً وفي اللحظات الخيرة فقط ، حين خانته معنوياته ، انهار إلى حدّ معين ، وهو ما جعلَ المسكين يعاني في روحه ما كان من الممكن أن يوفّره على نفسه لو امتلك شجاعة أكبر .

لقد أدار مباحثات الروح برباطة جأشٍ ورزانة أذهلتني وأعلن أمام الجميع حين حانت لحظة حمله إلى الفناء قائلاً : لتكن إرادة الربّ! ، أيضاً أدهشنا بتواضعه البنّاء . محزن أن العدوّ سرقه لحظاته الأخيرة ، لأنّه لولا ذلك ، لاعتُبِر موته بكل ثقة مقدّساً . فرض علينا ، نحن الذين حضرناه ، أن يصبح نموذجاً لنا (أقول ، إلى أن فقد السيطرة على نفسه) ، وكان عليَّ أن أستخلص من كلّ ما رأيتُ نتائج مفيدة لمهمتي العذبة كشافٍ للأرواح .

أسكنه الله فسيح جواره!

ولَكَ ، يا سيّدي ، البرهان عن أخلص وفاء في التحية التي أرسلها إليكم .

القسيس س . لورونيا

ب . د . ـ آسف أنّني لا أستطيع أن ألبي رغبتكم بالنسبة للصورة ، كما لا أعرف ماذا أقول لك كي تتدبّر الأمر .

واحدة . وأخرى .

لا بِثيليا (ليون) ١٢/ ١/ ٤٢

سيّدي العزيز :

أحيطكم علماً بوصول رسالتكم اللطيفة المؤرخة في ١٨ كانون الأول ، آملاً أن تتمتع في الوقت الحاضر بالصحة الجيدة كما في التاريخ المذكور . أنا بخير ـ الحمد لله ـ ، على الرغم من أنّني متخشّب أكثر من عود في هذا الطقس الذي لا يتمناه المرء حتى لأعظم المجرمين . وأخبركم بما طلبتم مني ، ذلك أنّني لا أرى في الخدمة ما يمنعني من ذلك فلو وجِد لعذرتني ، ولما كان باستطاعتي أن أقول كلمة واحدة . بالنسبة لباسكوال دوارتِ الذي تكلّمني عنه ، طبعاً أتذكّره فقد كان أشهر سجينٍ اضطررنا أن نحتفظ به خلال زمن طويل . بالنسبة لسلامة عقله ، لا أستطيع أن أؤكدها لك حتى ولو قدّموا لي إلدورادو ، لكنّه كان يقوم بأعمال تبرهن بوضوح على مرضه . كلّ شيء كان ، قبلَ أن يعترفَ ، على ما يرام ، لكن ما إن قام بذلك في المرّة الأولى ، معروف أنّه داخَلَهُ خجلٌ وندمٌ وأراد أن يتطّهر

بالسجن . المسألة أنّ هذا يوم اثنين لأنّه قتل أمّه وذاك ثلاثاء لأنّه اليوم الذي قتل فيه السيد كونت تورَّمِخيّا والآخر أربعاء لأنه مات فيه من لا أدري ، المسألة أنّ البائس كان يقضي نصفَ الأسبوع طوعاً لا يذوق لقمة واحدة ، وبالتالي سرعان ما راح يذوب لحمه ، حتى أنّني أرى أنّه لم يكن ليكلّفَ الجلاّدَ جهداً كبيراً في جعل البرغيين يلتقيان وسط الحلقوم . كان البائس المسكين يقضي أيّامه في الكتابة ، وكأنّه ممسوس بالحمّى ، وبما أنّه لم يكن يزعِج وكان المدير رقيقَ القلب وأمرنا بأن نمدّه بما يحتاجه لمتابعة الكتابة فقد أمن الرجل ولم يتراجع لحظة واحدة . ناداني في إحدى المناسبات وأراني رسالة في ظرف مفتوح (قال لي : كي تقرأها ، إن أردت) موجّهة إلى السيّد خواكين بارّرا لوبِّثْ ، في مِريدا وقال لي بنبرة لم أعرف قط ما إذا كانت متوسّلة او آمرة : حين يأخذونني ، خذ هذه الرسالة وسوِّ هذه الكومة من الأوراق قليلاً واعطِها جميعاً إلى هذا السيّد . هل فهمت ؟

ثم كان يضيف بعد أن ينظر إلى عينيّ ويضع في نظرته من اللغز ما يفزعني : سيجزيك الله به خيراً... لأنّني سأطلب منه هذا!

أطعته لأنّني لم أر سوءاً في ذلك ولأنّني احترمت دائماً إرادة الموتى .

أما بالنسبة لموته ، فإنّني سأكتفي بالقول بأنّه كان عادياً وبائساً ، لكنّه رغم أنّه كان يطلق في البداية أمام الجميع قوله : لتكن إرادة الربّ ، وأذهلنا ، سرعان ما نسي أن يُحافظ على تماسكه . غُشي عليه أمام مشهد سقالة الإعدام وحين عاد إلى وعيه راح يصرخ بأنّه لا يريدُ أن يموت ، وأن ما يفعلونه معه ليس فيه وجه حقّ واضطروا أن يحملوه جراً إلى القفص . هناك قبّل لآخر مرّة صليباً قدّمه إليه الأب سانتياغو ، الذي كان قسيس

السجن وقديساً في آنٍ معاً وقد أنهى أيامه باصقاً ورافساً دون أيّ اعتبار للحضور وبأخسّ وأدنى طريقةٍ يمكن لرجل أن ينهيها بها ، مظهراً للجميع خوفه من الموت .

كاميلو خوسيه ثيلا

نوبل 1989

(كاميلو خوسيه ثيلا (11 مايو 1916 - 17 يناير 2002

.أديب وشاعر إسباني
.حصل على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1989
في الحرب الأهلية الإسبانية
حارب إلى جانب فرانسيسكو فرانكو
.ولكنه أصبح أحد منتقديه فيما بعد

رواية مثل هذه التي هي الأولى اعتبرت الحدث الأهم
في عالم الرواية الإسبانية التالية للحرب الأهلية،
وذلك نظراً لأنها أسست لما بعد الواقعية
التي كانت منتشرة في إسبانيا، على الرغم من اتكائها على كلاسيكية
تعود إلى بدايات الرواية الإسبانية "لاثاريو دِيتوريس"
تعالج الرواية موضوعاً بسيطاً، ببنية مركبة
فالشخصية الأساسية، باسكوال، ريفي من استرِمادورا
محكوم بالإعدام يكتب مذكراته. وتتكشف الرواية منذ البداية
. وحتى النهاية عن قدرية مريعة

علي مولا

ISBN 978-9933-407-05-6
9789933407056